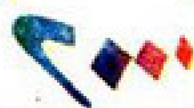
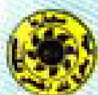
الكتاب الثانى عشر

روايات مصرية للجيب

كوكتيل





ثقافة الغد .. لشباب اليوم

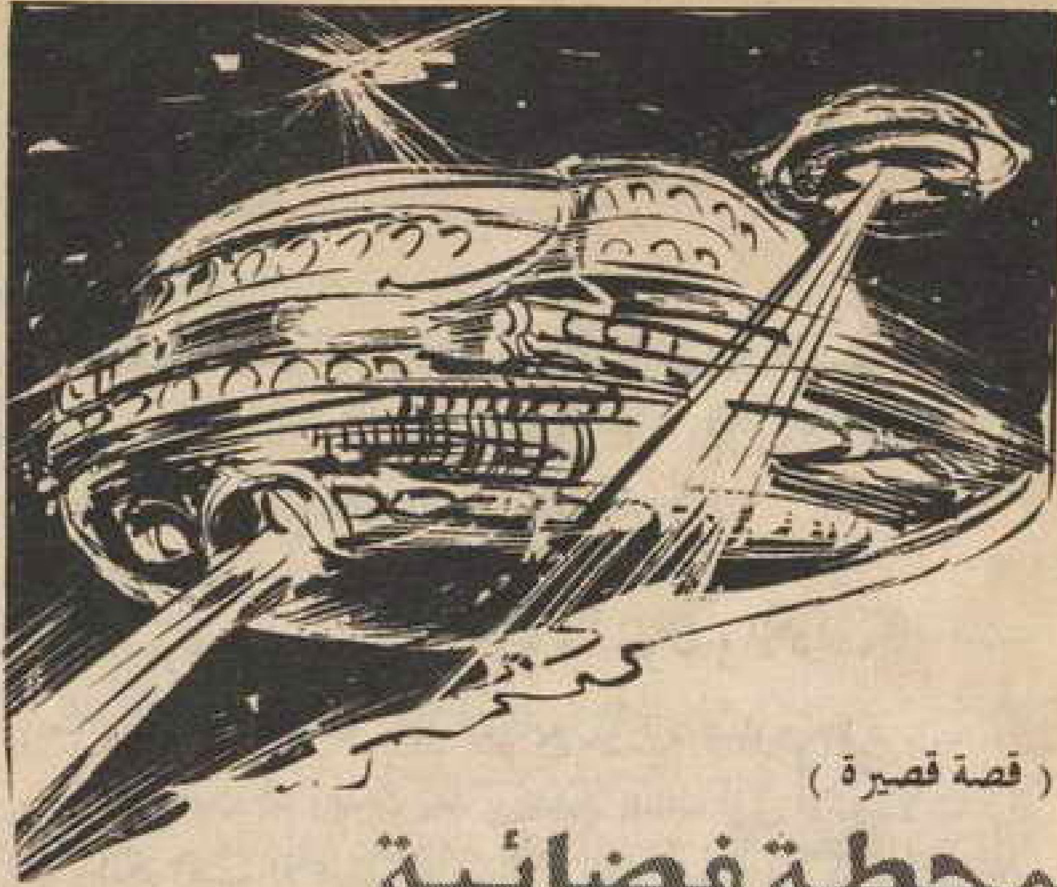
العنقاء

نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق



(قصة قصيرة)

محطة فضائية

« من (ص — ٧) إلى السفينة الأم .. لقد عبرنا الغلاف الجوى للكوكب الجديد ، ونحن نقترب من تلك الأضواء المتراقصة على سطحه .. »

انتقل ذلك النداء عبر الفضاء ، بواسطة أشعة غير مرئية ، من جسم طائر صغير ، إلى سفينة فضائية هائلة ، اختفت بلونها الداكن فى ظلام الفضاء اللانهائى ، واستقبل النداء قائد السفينة ، الذى التفت إلى كبير خبراء الفضاء ، الذى يقف إلى جواره ، وسأله :

— ما هذه الأضواء فى رأيك ؟

هزّ خبير الفضاء كتفيه ، وقال :

— إنها دليل على وجود حياة عاقلة على هذا الكوكب حتمًا .

ثم أردف فى لهجة ذات مغزى خاص :

— حياة متطوِّرة .

أومأ قائد السفينة برأسه موافقًا ، وتطلَّع إلى الفضاء بنجومه ، عبر نافذة ضخمة فى مواجهته ، ثم قال فى خفوت :

— هل سنتعامل مع تلك الأضواء كالمعتاد ؟

أجابه خبير الفضاء فى هدوء :

— هذا يتوقَّف على طبيعتها .

وسرح بأفكاره لحظات ، قبل أن يتابع ، وكأنه يسترجع ذكرى بعيدة :

— لم تكن أنت قد وُلِدْتَ بعد ، عندما بدأت أولى الاتصالات ، بين كوكبنا والكواكب الأخرى المأهولة .. لقد اسعدتنا هذه الاتصالات للغاية ، وتصوَّرنا أنها بداية لإمكانيات غير محدودة ، وثورة تكنولوجية وفضائية جديدة .

وتنهَّد فى عمق ، ثم استطرد :

— ولكن الأمر لم يكن كما توقَّعنا .. لقد اندلعت الحرب بين كوكبنا والكواكب الأخرى ، وكادت تودى بنصف الكون ، لولا انتصارنا على الجميع ، وإجبارنا إياهم على الاستسلام ، وفرض السلام الفضائى .

تمتم قائد السفينة :

— أذكر هذا .

ابتسم خبير الفضاء ، وهو يربِّت على كتفه ، وواصل حديثه :

— ومنذ ذلك الحين اتخذنا قرارًا حاسمًا ، ألا وهو ضرورة منع

الكواكب الأخرى من بلوغ مرحلة القوة ، التى تسمح لها بشن حروب فضائية أخرى ، وتعريض الكون لمخاطر جديدة .. وهذه مهمة سفينتنا هذه .. أن نمنع تقدّم العلوم الفضائية على الكواكب الأخرى .

همّ قائد السفينة بقول شىء ما ، لولا أن أرسل الجسم الطائر الصغير نداءً جديدًا ، يقول فيه :

— لقد اقتربنا من الأضواء المتراقصة ، ونحن نراقبها الآن من خلف سحابة كبيرة ، وظلام هذا النصف من الكوكب يحجبنا عن الأنظار .. ولكن طبيعة تلك الأضواء العجيبة لم تتضح بعد .

مال خبير الفضاء على جهاز الاتصال ، وقال فى اهتمام :

— صف لى ما تراه أيها الطيَّار .

أتاه صوت الطيَّار ، يقول :

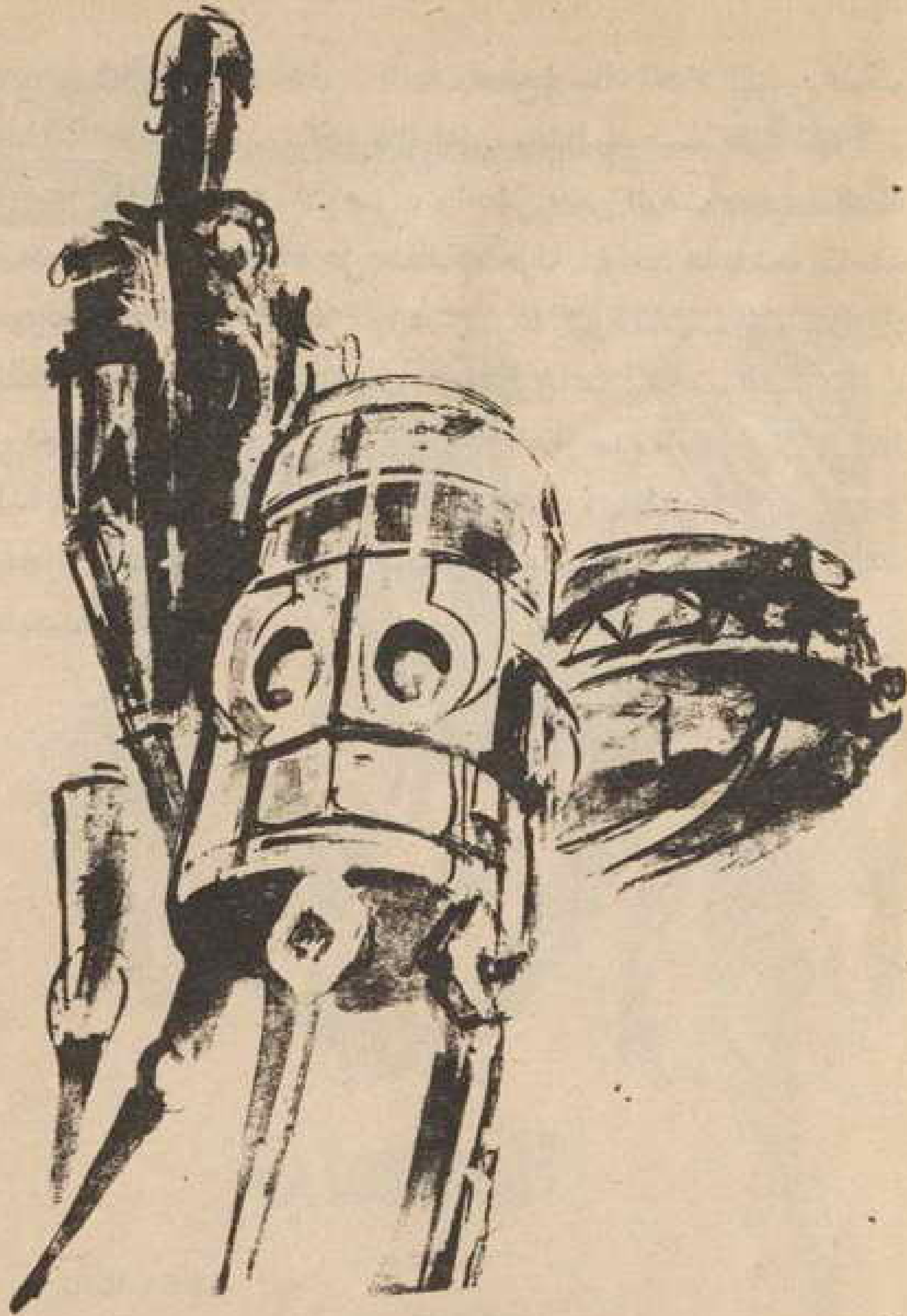
— إنها مساحة كبيرة ، تحوى دائرة مضيئة ، تدور حول نفسها ، وحولها عدة دوائر أخرى ، تأتى حركات عجيبة وعنيفة ، وأجسام تعلو وتهبط فى انتظام .

اعتدل خبير الفضاء ، وهو يهتف :

— دوائر وحركات عنيفة ؟!.. هل تفهم هذا يا قائد السفينة ؟ هل تذكر الاختبارات ، التى خضتها أنت ورفاقك ، قبل عملكم فى مجال الفضاء ؟

أجابه قائد السفينة :

— بالطبع .. اختبارات احتمال الطرد المركزى ، وقوة الدفع .. كانوا يضعوننا فى مقاعد تدور أفقيًا ورأسيًا ، وفى اتجاهات عشوائية عجيبة ، وبسرعات عنيفة .



ثم صاح فى حماس :

ــ لقد فهمت يا سيِّدى .

برقت عينا خبير الفضاء ، وهو يقول :

ــ نعم يا قائد السفينة .. إنها محطة فضائية .. محطة اختبارات لرواد الفضاء ، على هذا الكوكب .. إنهم يستعدون لدخول عصر الفضاء .

قال القائد فى حزم :

ــ لن نمنحهم هذه الفرصة أبدًا يا سيِّدى .

اعتدل خبير الفضاء ، وقال :

ــ بالتأكيد .

ثم أشار إلى جهاز الاتصال ، مستطردًا فى صرامة :

ــ هيا .. مر رجالك بتدمير تلك المحطة الفضائية ، ولنواصل رحلتنا ، بحثًا عن كواكب أخرى مأهولة .

التفت قائد السفينة إلى جهاز الاتصال ، وهو يقول فى حماس :

ــ سأفعل يا سيِّدى .. سأفعل .

وضغط زر الاتصال ، مستطردًا :

ــ من السفينة الأم إلى (ص ــ ٧) .. دمّر الهدف عن آخره ، وعد بأقصى سرعة .

هتف الطيار :

ــ سمعًا وطاعة يا سيِّدى ..

وانقضّ على الهدف ..

٥ ٥ ٥

« سيداتى آنساتى سادتى .. نأسف لقطع إرسالنا المعتاد ؛ لنذيع عليكم هذا النبأ الهام .. رصدت أجهزة الرادار مساء اليوم جسمًا طائرًا مجهولًا ، اخترق الغلاف الجوى الأرضى ، واختفى بعض الوقت خلف سحابة ضخمة ، ثم انقضّ فجأة على منطقة مأهولة ، وأمطرها بأشعة ساحقة مجهولة ، فأبادها عن آخرها ، وابتعد بسرعة كبيرة للغاية ، حيث عاد إلى الفضاء ، ولحق بجسم هائل مجهول ، ابتعد فور وصول الجسم الصغير إليه ، فى اتجاه كوكب الزهرة .. ولم ترد أية أنباء أو معلومات أخرى فى هذا الشأن ، وما زال علماؤنا يدرسون الموقف ، ويتساءلون عن سر ذلك الهجوم المحدود ، وسر اختيار مدينة ملاهٍ عادية هدفًا له ، ونعدكم بإذاعة ما يصلنا تباعًا .. وإلى بيان آخر .. » .

* * *

العقرب

عندما يعجز القانون البشرى عن القصاص ..
عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة ..
حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون ..
عندئذ يهب هو للقتال، حاملاً ذلك الاسم، الذى يثير الرجفة فى قلوب أعتى المجرمين ..
اسم (العقرب).

د. نبيل فاروق

ملخَّص ما سبق نشره

سعى المهندس الجيولوجى الشاب (فهمى صابر) إلى اللواء (حلمى) ، يطلب حمايته من عصابة كاملة ، تسيطر على واحدة من شركات البترول المصرية ، ولكن اللواء (حلمى) لم يُعِر الأمر اهتمامًا كافيًا ، حتى لقى المهندس (فهمى) مصرعه غرقًا ، وهنا اتجه اللواء (حلمى) إلى (نديم) ، وترك القضية كلها بين يدى (العقرب) ، الذى بدأ يغزل شباكه حول مديرى الشركة الأربعة (عماد) ، و (رضوان) ، و (جمال) ، و (أشرف) ، وعلى رأسهم رئيس مجلس الإدارة (كامل شكرى) ..

والتقى (نديم) بـ (كامل) ، بصفته صحفيا ، وادعى صداقته للمهندس (فهمى) ، وأوهم (شكرى) بأن (فهمى) قد أخبره بالقصة كلها قبل مصرعه ، وفى الليلة نفسها تعرَّض (نديم) لمحاولة قتل ، وهو ينتحل شخصية الصحفى (أحمد عبد الغفار) ، وكان هذا هو الدليل الذى ينشده ؛ ليبدأ (العقرب) مهمته ..

ولكن (العقرب) يدان بجريمة قتل لم يرتكبها ، ويواجهه العقيد (مجدى) بهذا ، وهو فى شخصية (نديم) ، ويقرِّر (نديم) اعلان الحرب على العصابة كلها .. وبلا رحمة ..

ويهاجم (نديم) ڤيلا (رضوان) ، أحد المديرين الأربعة ، ويكاد يحصل من هذا الأخير على سرّ اختلاسات البترول ، لولا وصول زوجته ، التى أطلقت صرخة رعب ، هبّ لها حارسا الڤيلا ، وهاجما (العقرب) ، ونجحا فى إصابته ، ولكنه اختفى فى الحديقة ، فخرجا مع (رضوان) للبحث عنه ، فى نفس الوقت الذى اتصلت فيه زوجة (رضوان) بـ (كامل شكرى) ، وأبلغته ما حدث ..

وأمر (كامل) رجاله بالقضاء على (العقرب) ..

ونجح (رضوان) وحارساه (زهدى) و (سعد) فى التغلّب على (العقرب)، وإفقاده وعيه، وطلب (رضوان) من (زهدى) نزع قناع العقرب ..

وأطاعه (زهدى) فى سرعة ، وانحنى لينزع القناع ..

قناع (العقرب) ..(*)

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزء الأوَّل ، فى العدد الحادى عشر من كوكتيل ٢٠٠٠ (ثمن الصداقة) .

١ ـ اقتحام ..

شعرت زوجة اللواء (حلمى) بالقلق ، عندما استيقظت من نومها ، فى الثالثة إلا ربعًا صباحًا ، فلم تجد زوجها إلى جوارها ، وأسرعت تبحث عنه فى ردهة المنزل ، وتنهَّدت فى ارتياح ، عندما وجدته جالسًا هناك ، فى الظلام ، يتطلَّع عبر نافذة الردهة ، إلى الحديقة الكبيرة المواجهة للمنزل ، فى صمت وشرود ، واقتربت منه لتضع كفها على كتفه فى رفق ، وهى تهمس فى خفوت ، وكأنما تخشى انتزاعه من شروده :

ـ هل أصابك الأرق ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وأجابها بصوت أقلّ خفوتًا :

ـ نعم .

سألته فى رقة :

ـ لماذا لم تشعل الضوء ؟

غمغم شاردًا :

ـ الظلام يجعل أعصابى أكثر هدوءًا ، ويكفينى ضوء مصابيح الطريق ، المتسلّل إلى هنا .

جذبت مقعدًا ، وجلست أمامه صامتة بعض الوقت ، قبل أن تسأله :

ـ أهو أمر متعلّق بالعمل ؟

ابتسم ابتسامة شاردة ، وأجاب :

ـ إلى حد ما .

سألته فى اهتمام :

ـ أهناك مشكلة تواجهك ؟. أعنى بالنسبة للعمل .

لم يكن من عاداتها أن تسأله عن متاعب العمل ، ولم يكن من المألوف أن يجيبها لو فعلت ، إلا أنه قال هذه المرة :

ـ بل هناك صديق يؤدى الى مهمة ، من أجل العدالة ، وأخشى أن يتعرّض للخطر أو ...

قاطعته فى هدوء :

ـ إنها الضريبة .

أدار عينيه إليها فى تساؤل ، فأردفت فى حماس :

ـ إنها الضريبة ، التى يؤديها كل من يسعى لتحقيق العدالة .. أن يخاطر بنفسه وحياته .. أليس هذا ما أخبرتنى به دومًا ، منذ زواجنا ؟.. ألم تواجه أنت نفسك الموت عشرات المرات ، من أجل العدالة ؟.. ألم تخبرنى بنفسك أنه من الطبيعى ، على حماة القانون والعدالة ، أن يواجهوا الموت بصدورهم العارية ، فى كل لحظة من لحظات حياتهم ؟..

انتقل حماسها إليه ، وهو يقول :

ـ نعم .. هذا أمر طبيعى .

وتنهَّد فى ارتياح ، وكأنما انزاح عن صدره حمل ثقيل ، وعاد يتطلَّع إلى الطريق ، قائلًا :

ـ نعم يا زوجتى العزيزة .. إنها الضريبة .. ضريبة حماة العدالة .

واسترخى فى مقعده فى هدوء ..

° ° °

امتدّت يد (زهدى) نحو قناع (العقرب) فى سرعة ..

لم يعد يفصله عنه سوى جزء من الثانية ، وبعدها تنتهى سرية شخصية (العقرب) ..

ويسقط القناع ..

إلى الأبد ..

ولكن فجأة سطع الضوء ..

ضوء مصباحى سيارة ، عبر بوّابة الڤيلا ، وبهر عيون الجميع ..

واعتدل (زهدى) فى حركة ، والتفت (رضوان) إلى مصدر الضوء فى ذعر ، أما (سعد) ، الذى كلّفه (رضوان) مهمة حراسة البوّابة ، فقد استدار بجسده كله يواجه مصباحى السيارة ، وعلى الرغم من الضوء الساطع ، فقد لمح ، خلف عجلة قيادة السيارة ، نفس الفتاة الجميلة ، التى سألته ورفيقه إرشادها إلى الطريق الرئيسى ، منذ أقل من ساعة ..

ولكنه لم يلمحها سوى ثوان معدودة ..



ثم اقتحمت السيارة بوّابة الڤيلا ..

اقتحمتها بضجة هائلة ، انتزعت إحدى ضلفتى البوّابة من مفصليها ، فى حين انتزع (سعد) مسدّسه ، صارخًا :

ــ إنها خدعة ..

ولكن السيارة مالت نحوه بحركة حادة ، وضربته بجانبها الأيسر فى عنف ، فأطاحت به إلى حوض من أحواض الزهور ، ثم أكملت طريقها بلا تردّد ، وعبرت ممر الڤيلا وحديقتها فى سرعة مخيفة ، لتتوقّف على قيد متر واحد من (رضوان) ، الذى تراجع صائحًا :

ــ النجدة يا (زهدى) !!

رفع (زهدى) مسدّسه نحو السيارة ، ولكن الفتاة الجميلة قفزت خارجها فى سرعة مدهشة ، وأطلقت من مسدّسها الصغير رصاصة واحدة ، أصابت مسدّس (زهدى) ، وأطاحت به بعيدًا ، فتراجع هذا الأخير فى دهشة وذعر ، فى حين هتفت الفتاة بلهجة آمرة :

ــ هيا .. احملا (العقرب) فى سرعة ، وضعاه داخل السيارة .

لحت تردّدهما ، فأضافت فى صرامة :

ــ أو أنسف رأسيكما بلا تردد .

كان هذا الجزء كافيًا ، لينتزع الإثنان نفسيهما من ذعرهما ، ثم يحملان (العقرب) ، ويضعانه على المقعد الخلفى للسيارة ، وبعدها زمجر (زهدى) ، وقال :

ــ لولا مسدسك هذا لحطمت عنقك .

ابتسمت ساخرة ، وقالت :

ــ بالتأكيد ، فهذه شيمة الجبناء .

ثم تلاشت سخريتها ، وهى تستطرد فى حزم :

ـــ هيا .. ابتعدا .

تراجع الاثنان فى سرعة ، فأدارت محرّك السيارة ، وهتفت ، وهى تلقى بطاقة من بطاقات العقرب عبر نافذتها :

ـــ تحياتنا للجميع .

وتراجعت بالسيارة فى سرعة ، ثم أدارتها فى مهارة مدهشة ، وانطلقت بها تعبر بوّابة الڤيلا مرة أخرى ؛ وصاح (زهدى) فى غضب :

ـــ اللعنة !

والتفت إلى (رضوان) ، يسأله فى سخط :

ـــ ماذا ينبغى أن نفعل يا سيّدى ؟

أتاهما صوت زوجة (رضوان) ، وهى تقول فى صوت مرتجف :

ـــ لقد فعلت أنا ما ينبغى فعله .

استدار إليها فى دهشة ، فأكملت فى صوت أكثر ارتجافًا :

ـــ لقد أبلغت الشرطة .

ooo

لم تكد السيارة تبتعد بضعة أمتار عن ڤيلا (رضوان) ، حتى ندّت عن (العقرب) آهة ألم ، ارتفعت بعدها يده تتحسّس رأسه ، وهو يتمتم :

ـــ ماذا حدث ؟

ابتسمت (غادة) فى حنان ، وقالت :

ـــ كنت أتصوَّر أنك ستستعيد وعيك بعد ساعة على الأقل ، ولكن يبدو أن رأسك أكثر صلابة ، مما كنت أتوقَّع .

اعتدل جالسًا على المقعد الخلفى ، وهو يسألها فى هدوء ، وكأنما لم يكن فاقد الوعى منذ لحظات :

ـــ هل اقتحمت بوّابة الڤيلا ؟

لوَّحت بكفها فى زهو ومرح ، وهى تقول :

ـــ بالطبع .. لقد نفذت الخطة الموضوعة بحذافيرها أيها القائد ، فقد اتخذت أوَّل منحنى ، وأوقفت السيارة ، ورحت أراقب الڤيلا ، من فوق صخور المقطَّم ، ولم أكد ألمح تلك المطاردة فى حديقتها ، حتى أدركت أن لحظة الاقتحام قد حانت ، ولكننى لم أتوقَّع أن أجدك فاقد الوعى هناك ، وإنما تصوَّرت أننى سأقتحم الڤيلا ، وتقفز أنت إلى السيارة ، ونبتعد على الفور .

وضحكت مستطردة :

ـــ أنت إذن الذى خالف الخطة .

لم تتلقَّ منه جوابًا ، فعقدت حاجبيها ، مغمغمة :

ـــ معذرة .. كنت قد نسيت أنك تكره الضحك والمرح والـ ...

قاطعها فى حزم :

ـــ زيدى من سرعة السيارة يا (غادة) .

سألته فى دهشة :

ـــ لماذا ؟

أجابها فى حسم :

ـــ أخشى أن تصيبك رصاصات هؤلاء الأوغاد ، الذين يطاردوننا .

نقلت بصرها فى سرعة إلى مرآة السيارة ، ورأت ضوء السيارة الأخرى ، التى تقترب من سيارتها فى سرعة ..

ولم يكن هذا هو الشىء الوحيد الذى رأته ..
لقد كانت هناك فوهة تطلّ من نافذة السيارة الأخرى .. فوهة مدفع آلى .

* * *



٢ — مطـاردة ..

دعك العقيد (مجدى) عينيه ؛ ليُذهب عنهما أثر النوم ، وهو يستقبل الرائد (حسن) فى ردهة منزله ، ويقول فى عصبية :

— أتعشّم أن يكون لديك سبب قوى للغاية ؛ لإيقاظى فى الثالثة صباحًا يا (حسن) ، وإلا فستتمنّى لو أنك لم تلتحق أبدًا بكلية الشرطة ، أو ..

قاطعه (حسن) فى انفعال :

— إنه (العقرب) يا سيِّدى .

انتفض (مجدى) فى قوة ، كما يحدث كلما سمع اسم (العقرب) ، وتبخّر كل أثر للنوم فى عينيه ورأسه ، وهو يمسك كتفى (حسن) فى قوة ، ويهتف به :

— أين ؟

أجابه (حسن) :

— لقد هاجم فيلا فى المقطّم ، يملكها رجل يُدعى (رضوان) ، يعمل مديرًا لمخازن شركة بترول ضخمة و ...

فى هذه المرة قاطعه (مجدى) ، وهو يندفع نحو حجرة نومه ، هاتفًا :

— سنذهب على الفور .

ابتسم (حسن) ، وهو يتابع تلك السرعة ، التى يرتدى بها (مجدى) ملابسه ، بعد سماعه الكلمة السحرية ، التى تبثّ النشاط والحماس فى عروقه كلها ..

كلمة (العقرب) ..

على الرغم من الهدوء الشديد ، الذى تتميَّز به شخصية (نديم) ، إلا أن هذا لم يمنعه أبدًا من العمل بالسرعة الواجبة ، عند أدنى شعور بالخطر ..

وعلى الرغم من إصابة ساقه اليسرى ، إلا أنه قفز فى مرونة ، من المقعد الخلفى إلى المقعد المجاور لـ (غادة) ، وهو يقول فى حسم :

ــ أظن أنه من الأفضل أن أقود أنا ، حتى يمكننا ..

قاطعته فى حزم :

ــ بل سأتولى أنا مهمة القيادة ؛ فساقك مصابة .

ورمقته بنظرة جانبية ، وهى تردف :

ــ ثم أننى أيضًا كنت أعمل بالشرطة ، لو أنك مازلت تذكر هذا .

تراجع فى هدوء ، واسترخى فى مقعده فى بساطة ، وكأنما يحيط به الأمان من كل جانب ، وقال :

ــ فليكن .

ضغطت (غادة) دوَّاسة الوقود ، وانطلقت بالسيارة فى تسارع مباغت ، أدهش مطارديها ، فزادوا من سرعة سيارتهم بدورهم ..

وبدأت مطاردة شرسة ..

على حافة المقطَّم ..

وداخل سيارة المجرمين ، كان (وجيه) يهتف فى غضب :

ــ اللعنة .. هذه الفتاة تقود سيارتها كالمجنونة ، دون أن تبالى بالمنحنيات أو المرتفعات .

قال سائق السيارة فى غيظ :

ــ لا تنس أيها الزعيم أن سيارتها صغيرة رياضية ، على عكس سيارتنا ، و ..

قاطعه فى حدة :

ــ اصمت .

ثم التفت إلى آخر ، وقال :

ــ (هشام) .. أنت أبرعنا فى إصابة الهدف .. قل لى : هل يمكنك إصابة إطار سيارة الفتاة ، مع حركتها السريعة هذه .

تألَّقت عينا (هشام) فى حماس ، وهو يقول :

ــ بالطبع .. إننى قادر على إصابة ذبابة ، فوق أنف قط عصبى ، دون أن يشعر القط ، أو ..

قاطعه (وجيه) فى عصبية :

ــ دعك من هذه المحاضرة المزهوة ، وأرنا هذا عمليًّا .

ابتسم (هشام) ، ورفع بندقيته إلى كتفه ، وهو يقول :

ــ سترى أيها الزعيم .

كانت (غادة) تعبر ــ فى هذه اللحظة ، منحنى بالغ الصعوبة ، عندما صوَّب (هشام) بندقيته إلى إطار سيارتها الأمامى ، وأطلق من شفتيه صفيرًا مرحًا ، ثم هتف فى زهو :

ــ بطلقة واحدة .

وأطلق رصاصة واحدة من بندقيته ..

وأصاب الهدف ..

° ° °

كانت الإصابة مباغتة وعنيفة بالفعل ، وكان أسوأ ما فيها هو توقيتها ؛ إذ أصابت إطار السيارة ، فى نفس اللحظة ، التى اتخذت فيها (غادة) أصعب زاوية للمنحنى ..

وانفجر الإطار بدوى أشبه بانفجار قنبلة ، وانحرفت السيارة فى عنف ، نحو حاجز الهاوية ، وصاح (نديم) :

— احترسى .

وبكل ما تملك من قوة ومهارة ، تشبَّثت (غادة) بعجلة القيادة ، وأدارتها فى الاتجاه المضاد ، فاحتكَّ جانب السيارة بالحاجز المعدنى ، وتطايرت من احتكاكهما شرارات عنيفة ، قبل أن تبتعد السيارة عن الحاجز ، وتميل على نحو خطر ، فى اتجاه الصخور ..

وفى السيارة الأخرى صاح (وحيد) فى ظفر :

— لقد أصبتهم .. لقد نجحت يا (هشام) .. رائع يا فتى !! رائع !!.

ابتسم (هشام) فى زهو ، وهو يقول :

— أكان لديك أدنى شكّ فى هذا .

أما سائق السيارة ، فقد عقد حاجبيه ، وهو يقول فى قلق :

— ولكن المشهد يبدو لى كما لو أن هذه الشيطانة تملك زمام القيادة ، فى مهارة تُحسد عليها ، على الرغم من صعوبة الموقف .

قهقه (وجيه) ضاحكًا ، وهو يقول :

— فليكن يا رجل .. حتى لو لم تسقط السيارة فى الهاوية ، فستوقَّف لانتظارنا على الأقل .

وكان محقًا فى قوله هذا ..

فعلى الرغم من مهارة (غادة) ، وأعصابها القوية ، التى ساعدتها على السيطرة على الموقف ، إلا أن التوقُّف صار ضرورة حتمية ، مما جعل (غادة) تقول فى سخرية مريرة ، وهى تضغط فرامل السيارة :

— معذرة أيها الراكب الوحيد .. يبدو أنها آخر محطة .. إجباريًا .

تأكَّد (نديم) من تثبيت قناعه الأسود على وجهه ، وقال فى حزم ، وهو يراقب سيارة المجرمين ، التى اقتربت منهما :

— لا بأس يا (غادة) .. من الواضح أننا سنخوض معركة عنيفة هذه المرة ، للدفاع عن روحينا .

مطَّت شفتيها ، وقالت :

— لقد خدعتنى غريزتى الأنثوية ، فلقد كنت أشعر أننا سننجو ، دون قتال .

توقَّفت سيارة المجرمين على قيد مترين من سيارتهما ، فاعتدل (العقرب) ، وهو يقول :

— لم أثق أبدًا فى ذلك الوهم ، الذى يطلقون عليه اسم الغريزة الأنثوية .

عقدت حاجبيها فى ضيق ، ثم أمسكت مسدّسها فى حزم ، عندما برز المجرمون الأربعة من سيارتهم ، وكل منهم يمسك مدفعًا رشاشًا ، وغمغمت :

— هل تظن أن مسدسًا واحدًا يكفى ، لمواجهة أربعة مدافع آلية ؟

أجابها فى هدوء :

— سلى غريزتك الأنثوية .

قالت فى عناد :

— لقد سألتها .

ثم رفعت مسدسها إلى وجوه الرجال الأربعة ، مستطردة :

ــ وأجابت بالإيجاب .

لم تكد تفعل ما فعلت ، حتى ارتفعت فوهات المدافع الآلية الأربعة فى وجهها ووجه (نديم) ..

وأصبح الموقف يحتاج إلى اسم جديد ..

اسم (مذبحة) ..

* * *



٣ ــ كيف ؟ ..

ما الذى يمكن أن يحدث ، فى مثل هذا الموقف ؟..

أربعة مدافع رشاشة ، فى مواجهة مسدّس واحد ..

هل تتوقّع أن تنطلق رصاصات المدافع الأربعة ، فتصرع (العقرب) و (غادة) ؟

هذا لن يحدث بالطبع ، وإلا لانتهت قصتنا عند هذا الحد ، بمصرع بطليها ..

هل تهزم (غادة) المدافع الرشاشة الأربعة ، بمسدّسها فقط ؟..

هذا أيضا مستحيل ، بالقياس إلى قدرات (غادة) العادية ، وإلى كون (العقرب) بلا سلاح ..

ماذا يمكن أن يحدث إذن ؟..

دعنى أنا أخبرك ما حدث ..

لقد كادت الأصابع تعتصر الأزندة ، وكادت الرصاصات تنهمر من وعلى الجانبين كالمطر ..

لولا ذلك الصوت ..

صوت البوق المميَّز لسيارة شرطة ، تقترب فى سرعة ..

لم يكد هذا الصوت يتضح فجأة ، حتى شحبت وجوه المجرمين الأربعة ، وهتف قائدهم (وجيه) :

ــ تراجعوا يا رجال .. ابتعدوا عن هنا بأقصى سرعة .

تراجع المجرمون الأربعة فى ذعر ، وقفزوا داخل سيارتهم ، وانطلقوا بها



فى سرعة ، وصوت سيارة الشرطة يقترب ، فهتفت (غادة) فى دهشة ، وهى تعيد مسدسها إلى جيبها :

ــ يا إلهى !.. هذا أعجب ما حدث لى ، فى عمرى كله !! هل تتصوَّر أن ..

قاطعها (العقرب) فى حزم :

ــ اختفى بسرعة .

غاصت فى مقعدها ، لتخفى جسدها فيه ، واختفى هو بدوره ، فى نفس اللحظة التى مرقت فيها سيارة الشرطة إلى جوار سيارتهما ، وهى تطلق بوق الطوارىء المرتفع ، ثم لم تلبث أن تجاوزتهما ، واختفت فى منحنى بعيد .

فاعتدلت (غادة) ، وهى تهتف :

ــ هل رأيت من كان داخل السيارة ؟

أجابها (نديم) فى رصانة ، وهو يضغط شفتيه بأسنانه ، فى محاولة للسيطرة على آلام ساقه :

ــ نعم .. لقد رأيته .

أطلقت (غادة) ضحكة عالية ، وقالت :

ــ يا لغرابة هذه الدنيا !!.. أتظن أن عزيزنا (مجدى) قد يخطر بباله ، ولو لحظة واحدة ، أنه أنقذ حياتنا ، دون أن يقصد ؟

أجابها فى هدوء :

ــ أظنه سيقتل نفسه ، لو كشف هذا .

أطلقت ضحكة قصيرة أخرى ، قطعها هو قائلًا :

ــ معذرة يا عزيزتى .. لست أحب قطع لحظات بهجتك ، ولكن

أظنك ستضطرين لاستبدال إطار السيارة التالف وحدك ، فيبدو أننى قد فقدت الكثير من الدماء و ...

ألقت نظرة هلعة على جرح ساقه ، وهتفت :

ـــ سأفعل بالطبع يا (نديم) .. سأفعل أى شىء فى الدنيا ..

ورفعت عينيها إليه ، مستطردة دون وعى :

ـــ من أجلك .

ودون أن تدرى ، حمل إليه صوتها نبرة الحب ..

كل الحب ..

° ° °

بدا (مجدى) شديد الانفعال ، وهو يميل برأسه نحو زوجة (رضوان) ، ويسألها بصوت مفعم بشتى المشاعر :

ـــ إذن فقد رأيت مقنّعًا يهاجم زوجك يا سيّدتى .. هل يمكنك وصف هذا المقنّع ؟

ازدردت السيّدة لعابها ، فى محاولة للتغلّب على ذلك التوتر ، الذى لم يفارقها بعد ، وهى تجيب :

ـــ إنه شاب على الأرجح ، نحيل القوام ، ولكنه متين البنيان ، يرتدى قميصًا أسود اللون ، وسروالًا وحذاءًا وقفازين ، من اللون نفسه ، و ..

قاطعها (مجدى) فى لهفة :

ـــ وملامحه ؟.. ماذا عن ملامحه ؟

هزّت كتفيها ، وقالت :

ـــ وكيف يمكننى تبيّن ملامحه ، وهو يخفى وجهه كله تقريبًا بقناع أسود سميك و ..؟

قاطعها فى حنق :

ـــ أعلم .. أعلم ..

ثم أشاح بوجهه ، مستطردًا فى سخط :

ـــ هذا ما يحدث دائمًا .

بدا مزيج من الضيق والغيظ على ملامحه ، وهو يدير عينيه فى المكان ، قبل أن يلتفت إلى (رضوان) ، ويسأله بغتة :

ـــ قل لى يا سيّد (رضوان) : لماذا هاجم (العقرب) فيلتك ؟

ارتبك (رضوان) ، وتلعثم وهو يجيب :

ـــ إنه مجرّد لصّ ، و ...

قاطعه (مجدى) فى صرامة :

ـــ ما السبب الحقيقى يا سيّد (رضوان) ؟

قال (رضوان) فى عصبية :

ـــ ولماذا يتحتم وجود سبب آخر ؟

أجابه (مجدى) فى حزم :

ـــ لأننى أعرف (العقرب) .

بدا هذا الجواب عجيبًا ، وهو يخرج من بين شفتى رجل شرطة ، يحقّق فى بلاغ ضد مجهول مقنّع ؛ لذا فقد تطلّع (رضوان) وزوجته إلى (مجدى) فى دهشة ، شاركهما فيها الرائد (حسن) ، فى حين لم ينتبه إليها (مجدى) نفسه ، وهو يستطرد :

ـــ إننى أختلف معه بالطبع ، وأصرّ دائمًا على أنه يعمل بأسلوب مخالف للقانون ، الذى يحتم ضميرى ومهنتى طاعته ، إلا أنه ليس لصًا ، بأى حال من الأحوال .

قالت زوجة (رضوان) فى عصبية :

ــ بمَ تفسّر اقتحامه للفيلا إذن ؟

أدار (مجدى) عينيه فى بطء إلى (رضوان) ، وهو يجيبها :

ــ هل ألقيت هذا السؤال على زوجك ؟

تطلّعت فى دهشة إلى زوجها ، الذى شحب وجهه فى شدة ، وعادت تنقل عينيها إلى (مجدى) ، وتقول على نحو أكثر عصبية :

ــ وما شأن زوجى بالجواب أيها العقيد ؟

ارتسمت على شفتى (مجدى) ابتسامة باردة ، وهو يقول :

ــ هل ألقيت عليه هذا السؤال أيضًا ؟

اندفع (رضوان) يقول فى توتر بالغ :

ــ إننى رجل شريف يا سيادة العقيد ، لا شأن لى بهؤلاء المجرمين المقنعين .. لقد دافعت عن نفسى ، كما يفعل أى رجل شريف ، وعندما أطلقت النار على ذلك (العقرب) ، لم أكن أقصد أن ..

قاطعه (مجدى) هاتفًا :

ــ أطلقت النار عليه ؟!.. هل أصبته ؟

أجابه (زهدى) :

ــ أنا الذى أطلقت عليه النار يا سيادة العقيد ، وأنا حارس خاص رسمى ، أحمل ترخيصًا بمزاولة هذه المهنة ، وآخر بحمل السلاح ، و ...

قاطعه (مجدى) ، وهو أكثر انفعالًا :

ــ دعك من كل هذا .. هل أصبته ؟

أجابه (زهدى) فى دهشة :

ــ نعم .. لقد أصبته فى ساقه ، و ....

قاطعه (مجدى) مرة أخرى :

ــ أأنت واثق ؟

أجاب (زهدى) :

ــ بالطبع .

برقت عينا (مجدى) فى ظفر ، ومدّ يده إلى (زهدى) ، قائلًا :

ــ أعطنى مسدّسك يا رجل .

ناوله (زهدى) مسدّسه ، وهو يقول فى توتر :

ــ أخبرتك أننى أحمل ترخيصًا بحمله ...

اختطف (مجدى) المسدّس من يد (زهدى) ، وهو يقول :

ــ قلت لك : أعلم هذا .. أعلمه .

والتفت يناول المسدّس إلى الرائد (حسن) ، وهو يقول فى حماس :

ــ اعتبر هذا المسدس دليلًا ، وسنطبق على (نديم) الليلة ، ونتزع الرصاصة من ساقه ، ونقارنها برصاصات هذا المسدّس ، وسنثبت أن (نديم) هو (العقرب) .

تبادل (رضوان) و (زهدى) نظرة سريعة ، تألّقت خلالها عيونهما ، ثم أسرع (زهدى) يقول :

ــ لن يكون هذا هو الدليل الوحيد يا سيادة العقيد ، فلقد حصلت على رقم سيارة الفتاة ، التى عاونت ذلك (العقرب) ، كما يمكننى تعرّف الفتاة نفسها ، حتى ولو حاولت الاختفاء وسط مظاهرة ضخمة .

خيّل إلى الجميع أن عينى (مجدى) قد تحوّلتا إلى جمر ملتهب ، وهو يقول بابتسامة واسعة ، مفعمة بالظفر والسعادة :

— فتاة وسيارة .. يا إلهى !.. إنه يوم حظى الحسن بالتأكيد .. لأول مرة تكتمل كل الأدلة والقرائن ، وتجتمع كلها بين أصابعى ، وأنا أواجه (العقرب) .

وقهقه ضاحكًا بغتة ، على نحو لا يتناسب قط مع الظروف والأحداث ، قبل أن يستطرد فى ارتياح بالغ :

— أخيرًا سأسحقه .

وضمّ قبضته ، مردفًا فى شراسة :

— سأسحق (العقرب) .

* * *



٤ — الدليل ..

هوت صفعة (كامل شكرى) على وجه (وجيه) قوية عنيفة ، تموج بالغضب والثورة ، قبل أن يصرخ (كامل) :

— هربتم ؟!.. هكذا بكل بساطة ؟!.. كيف يمكننى الاعتماد على ثلة من الجبناء أمثالكم ، بعد ما فعلتموه ؟

احتقن وجه (وجيه) ، وهو يضع يده على موضع الصفعة ، ويقول فى حدة :

— هل كنت تفضّل وقوعنا فى أيدى الشرطة ؟

لوَّح (كامل) بذراعه فى سخط شديد ، وهو يهتف :

— بل كنت أفضّل أن تطلقوا النار على ذلك المقنّع أوّلًا ، ثم تلوذون بالفرار ، أو ...

قاطعه (وجيه) فى سخط :

— إذن فأنت ترى أنه كان من المفروض أن نطلق مدافعنا الرشاشة ، وكأننا نعلن للشرطة عن وجودنا ، ونجعل من أنفسنا هدفًا لهم .. لا يا سيِّدى .. إننا نطيع أوامرك ، وننفذ كل ما تطالبنا به ؛ لأننا نحصل منك على مقابل مادى يساوى ذلك ، أما أن نلقى بأنفسنا فى السجن من أجلك ، فهذا أمر آخر .

ثم اتسعت عيناه فى شراسة مخيفة ، وهو يستطرد :

— وفى المرة القادمة سأقطع يدك بلا رحمة ، لو صفعتنى .

أدرك (كامل) خطأ فعلته ، فازدرد لعابه فى توتر ، وغمغم :

— إننى لم أقصد هذا بالطبع .. معذرة .. إنما هى أعصابى الثائرة و ... وكفى .

ران عليهما الصمت لحظة طويلة ، بدا فيها كل الغضب على وجه (وجيه) ، ثم لم تلبث ملامحه أن لانت تدريجيًا ، وهو يقول :

ــ ليكن .

ثم دسّ بين شفتيه سيجارة ، أشعلها بقدّاحته فى حركة سريعة ، ونفث دخانها ، قبل أن يستطرد :



ــ ولكن قرارنا لن يمنعنا من اقتناص ذلك (العقرب) .

عقد (كامل) حاجبيه ، وهو يسأله :

ــ كيف ؟

ابتسم (وجيه) فى دهاء ، وهو يقول :

ــ لقد حصلت على رقم سيارة الفتاة ، ولى صديق يعمل بإدارة المرور ، يمكنه إرشادنا إلى صاحبة السيارة ، وصديقة ذلك (العقرب) .

هتف (كامل) :

ــ رائع يا (وجيه) .. رائع .. ومتى ستفعل هذا ؟

اتسعت ابتسامة (وجيه) ، وهو يقول :

ــ سيكون أوّل ما أفعله فى الصباح أيها الزعيم .. أن أحفر القبر .

وارتسمت فى عينيه ضحكة شيطانية ، مع استطراداته :

ــ قبر (العقرب) ..

° ° °

لم يشعر (مجدى) بأدنى قدر من الدهشة ، عندما استقبلته (غادة) ، على باب منزل (نديم) ، فى الخامسة صباحًا ، وإنما ابتسم فى سخرية ، وقال :

ــ هل يبدو لك أنه من الطبيعى أن أجدك هنا ، فى منزل رجل عزب ، فى مثل هذا الوقت ؟

ابتسمت (غادة) فى سخرية ، وقالت :

ــ وهل من الطبيعى أن تختار هذا الوقت لزيارته ؟

أجابها فى صرامة :

ــ لست هنا بغرض الزيارة .. إنها مهمة رسمية .

قالت ساخرة :

ــ وأنا هنا لمهمة طبّية .

قال فى خبث :

ــ أراهن أنها رصاصة ، أصابت عزيزنا (نديم) ، فى ساقه اليسرى ، أليس كذلك ؟

رفعت حاجبيها فى دهشة مصطنعة ، وقالت :

ــ عجبًا !!.. هل أصبحت أحد قارئى الغيب ؟

أجابها فى صرامة :

ــ بل صرت شرطيًا ناجحًا ، يملك ــ لأوّل مرة ــ قضية مكتملة ، توقع بالسيِّد (نديم) ، ورفيقته الحسناء .

قالت فى سخرية أحنقته :

ــ أحقًا ؟!

ثم أطلقت ضحكة عالية ، جعلته يعقد حاجبيه فى غضب ، قبل أن تفسح له الطريق ، مستطردة فى سخرية :

ــ هيا إذن يا بطل الأبطال .. ألق القبض علينا .

وعلى الرغم من غضبه الشديد ، اندفع (مجدى) داخل المنزل ، وقطع الطريق إلى حجرة نوم (نديم) بخطوات واسعة ، وهو يقول :

ــ سنرى من يضحك أخيرًا .

شيَّعته بضحكة ساخرة أخرى ، جعلته يدفع باب حجرة نوم (نديم) بقدمه فى عنف ، ويقول فى حدة :

ــ إننى ألقى القبض عليك يا (نديم فوزى) ، بتهمة الـ ....

بتر عبارته بغتة ، واحتبست الكلمات فى حلقه ، وهو يحدِّق فى المشهد أمامه ..

لم يكن (نديم) وحده فى حجرته ..

كان هناك طبيب ..

ــ طبيب (نديم) الخاص ..

وكان من الواضح أن الطبيب قد انتهى من عمله منذ لحظات ، فقد كان يجفف يديه ، بعد أن انتزع قفازه الجراحى ، وهو يلتفت إلى (مجدى) ، ويبتسم قائلًا :

ــ صباح الخير يا (مجدى) .. كيف حالك يا ولدى ؟.. هل أتيت للاطمئنان على زميلك القديم (نديم) ؟

عقد (مجدى) حاجبيه فى شدة ، وقد اشتمّ رائحة السخرية ، فى كلمات الطبيب الكهل ، وقال فى حدة :

ــ بل أتيت لإلقاء القبض عليه يا دكتور (قدرى) .

رفع الطبيب حاجبيه ، فى دهشة واضحة الاصطناع ، وهو يقول :

ــ إلقاء القبض عليه ؟!.. بأية تهمة يا ولدى ؟

قال (مجدى) فى عصبية :

ــ دعك من التهمة ، ولتقم بواجبك ، كأى رجل شريف ، وتسلّمنى الرصاصة ، التى استخرجتها من جرح (نديم) .

أجابه الدكتور (قدرى) فى هدوء :

ــ ولكننى لم أستخرج أية رصاصات من جسد (نديم) يا رجل ، فلقد اخترقت الرصاصة ساقه ، ونفذت منه ، وارتطمت بالحائط هناك ، و ...

قاطعه (مجدى) فى غضب :

ــ لا تشر إلى هذا الحائط يا سيِّدى ، فأنت تعلم أنه لم يصب بالرصاصة هنا ، بل فى ڤيلا بالمقطّم ، فى الثالثة إلا الربع صباحًا ، و ...

هتف الطبيب مقاطعًا :

ــ ولكن هذا مستحيل يا ولدى ، فلقد أصيب (نديم) برصاصة هنا ،

فى الثانية صباحًا تقريبًا ، أصابه بها زميلته (غادة) ، عندما كانت تختبر مسدّسها ، الذى تحمل ترخيصًا بحمله ، ولقد اتصلت بى فور حدوث الإصابة ، فهرعت إلى هنا على الفور ، وبلغت المكان فى الثانية والنصف .

صاح (مجدى) فى ثورة :

ــ سيثبت الطبيب الشرعى أنك كاذب .

ابتسم الطبيب فى ثقة ، وقال :

ــ أتتصوَّر أن أمهر الأطباء الشرعيين ، يمكنه تحديد لحظة الإصابة بمنتهى الدقة ، بعد تدخل جراحى ؟

أسقط فى يد (مجدى) ، وأدرك على الفور أنه قد خسر هذه النقطة ، ولن يمكنه أبدًا الاعتماد عليها ؛ لإدانة (نديم) ، وإثبات أنه و (العقرب) وجهان لعملة واحدة ، فالتفت إلى (غادة) ، وقال فى عصبية :

ــ أتعلمين أن هذا قد يعرّضك لسحب ترخيص المسدّس ؟

هزَّت كتفيها فى لا مبالاة ، وقالت :

ــ قد .. لا تنس أننى محامية ، يمكننى الدفاع عن خطإ غير مقصود ، ثم أن (نديم) لن يتقدّم بشكوى ضدى .. أليس كذلك ؟

هتف (مجدى) فى غيظ :

ــ أعلم أنه لن يفعل ، ولكن هذا ليس الدليل الوحيد ، الذى أملكه هذه المرة ، فلقد التقط حارس الفيلا رقم سيارتك الحمراء .

رفعت حاجبيها ، هاتفة على نحو تمثيلى :

ــ سيارتى الحمراء ؟!.. هل عثرتم عليها ؟.. لقد أبلغت بسرقتها عصر اليوم ، ولم أتصوَّر أن يعثر عليها رجال الشرطة بهذه السرعة .. إنكم عباقرة بحق .

قال محتدًا :

ــ فليكن .. لقد اتخذتما احتياطكما بشأن السيارة ، ولكن ماذا عنك ؟ لقد أكَّد الحارس قدرته على تعرّفك .

هزَّت كتفيها ، قائلة :

ــ فليكن .. يمكنه أن يشاهدنى فى عرض عام ، وسأعترف بكل شىء تفصيليًا ، لو أمكنه تعرّفى .

سألها فى توتر :

ــ ماذا تعنين :

عادت تهزّ كتفيها مرة أخرى ، وهى تقول :

ــ لا شىء ، وإنما يبدو لى أن تعرّف إمرأة ما أمر مستحيل تقريبًا ، ما لم يكن ذلك الذى يحاول تعرّفها وثيق الصلة بها ، فأدوات الزينة والشعور المستعارة تفعل الكثير ، و ...

قاطعها ، وقد أدرك ما ترمى إليه :

ــ فليكن .

ثم استطرد فى سخط واضح :

ــ يمكننى مع كل هذا إلقاء القبض عليكما ، وإلقاؤكما فى السجن لبضعة أيام على الأقل ، ولكننى لن أفعل .. ليس لأننى أكره مضايقتكما ، ولكن لأن فرصة الإيقاع بكما تتضاءل كثيرًا ، عند منعكما من العمل ، وأنا مصرّ على أن ألقى القبض على (العقرب) يومًا ، وهو يرتدى قناعه .

وبرزت أسنانه ، وهو يستطرد فى ثورة :

ــ ثم أنزع القناع عن وجهه بنفسى .

لم يكد يلقى كلمته هذه ، حتى اندفع مغادرًا المكان ، وأغلق الباب خلفه فى عنف ، فابتسمت (غادة) فى سخرية ، مغمغمة :

ــ كم أشفق عليك يا عزيزى (مجدى) .



أجابها (نديم) فى هدوء :

ــ إنه يحاول تأدية واجبه بأمانة فحسب يا (غادة) .

ابتسم الدكتور (قدرى) ، وقال :

ــ أنت أيضًا تؤدى واجبًا رائعًا للعدالة يا ولدى ، وكم يسعدنى أن منحتنى ثقتك ، وكشفت لى حقيقة شخصيتك المزدوجة ، وأصارحك القول أننى لم أكن أتخيَّل وجود شخصية مثلها ، فى العالم كله .. أقصد شخصية حقيقية .

قال (نديم) فى رصانة ، وهو يقف على قدميه :

ــ لم أكن لأجد من هو أفضل منك ، لمنحه ثقتى ، ومشاركته سرى ، يا سيِّدى .. فأنت أصدق أصدقاء والدى ، وطبيبى الخاص منذ مولدى .

ثم تطلَّع إلى عينى الطبيب ، مستطردًا فى عمق :

ــ ولكننى أطالبك بحفظ السر ، وإخفائه حتى عن والدى نفسه .

ابتسم الطبيب ، قائلًا :

ــ بالطبع .

ثم أضاف بسرعة ، وكأنه يرغب فى الفرار من هذه النقطة :

ــ هل تؤلمك ساقك ؟

أجابه (نديم) :

ــ قليلًا .

ثم اعتدل ، وتطلَّع إلى (غادة) ، مستطردًا :

ــ ولكن هذا الألم لا يعنى شيئًا ، لو قارنته بما ينتظرنا يا سيِّدى ، فتلك المواجهة العنيفة ، التى حدثت منذ ساعات ، بيننا وبين هؤلاء المجرمين ، تعنى أننا نواجه عصابة رهيبة ، مخيفة ، لا تتورَّع عن القتل والفتك ، فى سبيل ما تربحه من مال ، يبلغ عدد أصفاره الستة أصفار على الأقل .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يستطرد :

ــ إننا نواجه حربًا يا سيِّدى .. حربًا شعواء .

وكان على حق .

ooo

٥ ـــ ناقوس الحرب ..

لم يثر اجتماع مديرى الشركة الأربعة ، برئيس مجلس إدارتها ، اهتمام أى من العاملين بها ، إذ كانت هذه الاجتماعات تتمّ على نحو شبه دورى ، منذ سنوات ، ولكن الشيء الذى لم يعلمه أحد ، هو أن هذا الاجتماع بالذات لم يكن اجتماعًا تقليديًا ...

لقد كان أشبه بمجلس حرب ...

نعم .. مجلس حرب يتزعمها (كامل شكرى) ، الذى كان أكثر الجميع ثورة فى حجرة الاجتماعات ، وهو يضرب سطح المنضدة الكبيرة بقبضته ، هاتفًا :

ـــ إنها مهزلة .. كيف يمكن لرجل واحد أن يهزمنا ، ويثير رعبنا إلى هذا الحد ؟

قال (رضوان) ، فى صوت ما زال يحمل ارتجافة كلماته :

ـــ إنه ليس مجرّد رجل واحد .. إنه شيطان .

لوّح (كامل) بذراعه فى حنق ، وهو يهتف :

ـــ لا يوجد شياطين على الأرض .. هذا الرجل يرهبكم ويرعبكم فحسب . بقناعه الأسود ، الذى يضفى عليه الغموض ، وزيه الأسود المخيف ، ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، مجرّد رجل واحد ، يسهل علينا القضاء عليه .

ثم عاد يضرب سطح المنضدة بقبضته ، مستطردًا :

ـــ والآن ماذا ستفعلون ؟

ران صمت رهيب على الحجرة لحظات ، ثم قال الدكتور (جمال) فى خفوت :

ـــ سأرحل .

التفت إليه الآخرون فى دهشة ، وسأله (كامل) فى حدة :

ـــ ماذا قلت ؟

ارتفع صوت (جمال) ، وهو يقول فى عصبية :

ـــ قلت إننى سأرحل .. سأجمع متاعى ، وأعرض المستشفى للبيع ، ثم أستقيل من هنا ، وأفرّ بأوّل طائرة إلى (سويسرا) ، حيث أموالى .

لم يكتف بهذا القول ، وإنما اندفع يستطرد فى انفعال :

ـــ لقد سئمت كل هذا .. لم أعد أحتمل .. ثم أننا قد جمعنا ما يكفى من الأموال ، فى السنوات العشر الأخيرة ، وحان الوقت لننعم بما جمعنا .

بدت عينا (كامل) مخيفتين ، وهو يقول :

ـــ ولكنك لست تملك الرحيل .

صرخ (جمال) :

ـــ لن يمكنكم منعى .. لا أحد يمكنه ذلك .. قلت لكم أننى سئمت كل هذا .. سئمته .

صاح به (كامل) فى قسوة :

ـــ ليس من حقك أن تفعل .. أنت بالذات لا يمكنك ترك موقعك ، وإلا فسدت اللعبة كلها .. اسمعنى جيّدًا يا رجل .. لو أن الخوف من ذلك المقنّع هو ما يدفعك إلى الفرار ، فسأمنحك دافعًا أقوى للبقاء .

ونهض من خلف مكتبه ، واتجه بخطوة واسعة إلى حيث (جمال) ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول فى غلظة :

ــ إننا جميعًا فى قالب واحد يا رجل .. كلنا نلعب لعبة واحدة ، فى مضمار واحد ، وانسحاب أى فرد منا يعنى إفساد السباق كله ، ولهذا يجب أن يكون الانسحاب جماعيًا ، أمّا من يفكّر وحده فى الفرار ، فسيكون جزاؤه منا هو الموت .. هل تفهم ؟

انتفض جسد (جمال) فى رعب ، و (كامل) يكرّر فى وحشية مرعبة :

ــ الموت .

ثم اعتدل (كامل) ، وترك (جمال) ينهار شاحبًا مرتجفًا على مقعده ، واستدار متجاهلًا إياه ، وهو يتابع :

ــ أما بشأن ذلك المقنّع ، فقد جمعنا ما يكفينا للقضاء عليه هذه المرة .

قال المهندس (أشرف) فى تردّد :

ــ هذا ما سمعناه أمس .

التفت إليه (كامل) بنظرة نارية ، وهو يقول :

ــ اليوم نملك معلومات أكثر ، وفرصة أكبر .

ثم أشار إلى (رضوان) ، مستطردًا :

ــ أخبرهم ما سمعته من عقيد الشرطة أمس .

تنحنح (رضوان) ، وقال :

ــ لقد قال العقيد (مجدى) ، أنه لن يهدأ حتى يثبت أن (نديم) هو (العقرب) .

قال (عماد) فى حيرة :

ــ ومن (نديم) هذا ؟

ابتسم (كامل) ابتسامة شرسة ، وقال :

ــ كنت أتوقّع هذا السؤال .

ثم اعتدل ، مستطردًا فى حسم :

ــ لقد التقط حارس (رضوان) رقم سيارة الفتاة ، التى أنقذت (العقرب) ، ولقد تحرّيت بوسائلى الخاصة عن هذه السيارة ، وعلمت أنها ملك لمحامية شابة ، إسمها (غادة) ، وأنها تعمل فى مكتب محام شاب ، يحمل اسم (نديم) .

تطلّع إليه الجميع ، فى مزيج من اللهفة والقلق ، وهو يستطرد :

ــ (نديم فوزى)؟!

خيّم الوجوم على رءوسهم لحظات ، وهم يتبادلون نظرات حائرة ، قبل أن يقول (عماد) :

ــ لم أسمع اسمه أبدًا من قبل .

ابتسم (كامل) ، وهو يقول :

ــ اطمئن يا رجل .. لقد اتخذت الترتيبات اللازمة لتسمع اسمه قريبًا . ولتقرأه أيضًا .

وتحوّلت ابتسامته إلى ضحكة عصبية ، وهو يستطرد :

ــ فى صفحة الوفيات .

وتفجّرت ضحكته الوحشية تجلجل فى المكان ..

ابتسمت (غادة) فى حنان ، وهى تقدّم قدح القهوة المعتاد لـ (نديم) ، فى حجرة مكتب هذا الأخير ، وتقول :

ــ لم أتصوّر أنك ستحضر إلى المكتب فى موعدك ، بعد كل ما حدث

تناول قدح القهوة من يدها ، وقال :

— المفروض ألا تطغى شخصية (العقرب) على (نديم فوزى) ، ثم إن ساقى لا تؤلمنى كثيرًا ، فلقد عالجها الدكتور (قدرى) بعبقريته الفذّة ، وأصابعه الساحرة ، حتى أننى أستعملها كما كانت سليمة .

قالت فى تعاطف :

— هذا لأنها لم تمزّق عضلات الساق ، أو تخترق عظامه لحسن الحظ .

قال فى هدوء ، وهو يرتشف قدح القهوة :

— ولسوء حظ عصابة البترول .

اتخذت مجلسها على المقعد المقابل لمكتبه ، وقالت :

— أمر هذه العصابة يُدهشنى بحق ، فحديث (رضوان) إليك منطقيًا للغاية . وليس من السهل أن يتم ضخ كمية من البترول ، دون أن يشعر بها أحد . وعلى الرغم من هذا ، فالأسلوب الذى يتعامل به الجميع ، يؤكّد أنهم متورطون فى جريمة كبرى .

تنهّد (نديم) ، وقال :

— هذا الأمر يحتاج لاستشارة خبير فى شئون البترول .

ثم اعتدل مرتشفًا رشفة أخرى من قدحه ، ومستطردًا :

— أو لهجوم جديد من (العقرب) .

ابتسمت لحماسه ، وهى تسأله :

— من هذه المرة ؟

تراجع وهو يهزّ كتفيه ، مستطردًا :

— لم يستقرّ رأيى بعد .

لم يكد يتمّ كلمته ، حتى دخل (أحمد) إلى الحجرة ، وتنحنح لينبههما إلى وجوده ، فالتفتا إليه فى تساؤل ، جعله يقول فى سرعة :

— هناك عميلان ، يطلبان مقابلتك ، بشأن قضية ما ، يا سيّد (نديم) .

أجابه (نديم) فى هدوء :

— دعهما يدخلان يا عم (أحمد) .

نهضت (غادة) من مقعدها ، واتجهت إلى أريكة جانبية ، وهى تقول :

— إنه دور (نديم) هذه المرة .

نقلت بصرها إلى الرجلين ، وانتابها شعور بعدم الارتياح ، وهما يتقدمان بملامح جامدة إلى (نديم) ، الذى نهض لمصافحتهما ، فسأله أحدهما فى برود :

— أأنت السيّد (نديم فوزى) ؟

أجابه (نديم) فى بساطة :

— نعم .. أنا هو ، وهذه زميلتى (غادة) .

قال الرجل فى خشونة :

— رائع .. هذا يمنحنا فرصة إنهاء العمليتين بضربة واحدة .

وبسرعة لم يتوقعها (نديم) ، انتزع الرجلان من جيبى سترتيهما مسدسين ضخمين ، صوّبا فوهتيهما إلى صدره ، و ...

ودوى صوت رصاصتين فى حجرة مكتب (نديم) ..

٦ ــ القانون ..

سعل الرائد (حسن) ، على الرغم منه ، وهو يدلف إلى حجرة مكتب العقيد (مجدى) ، التى انعقدت فى سمائها سحب الدخان ، وامتلأت منفضة السجائر فيها بعشرات من أعقاب لفافات التبغ ، التى يدخنها (مجدى) فى شراهة ، وهو منهمك فى دراسة ملف ضخم أمامه ، وألقى الرائد (حسن) نظرة مشفقة على (مجدى) ، قبل أن يسأله :

ــ معذرة يا سيِّدى .. هل تحتاج إلى مساعدة ؟

رفع (مجدى) عينيه إليه فى بطء ، وانتزع من بين شفتيه بقايا سيجارة ، كادت نيرانها تلسعه ، وأطفأها فى المنفضة فى عنف ، وهو يقول :

ــ المساعدة الوحيدة ، التى يمكنك تقديمها لى الآن ، هى جمع مزيد من المعلومات عن (رضوان) ، وشركة البترول ، التى يعمل بها .

ابتسم (حسن) ، وهو يجلس أمام (مجدى) ، وقال :

ــ ولماذا تراجع ملف شركة البترول ، بكل هذا الاهتمام يا سيِّدى ؟

أزاح (مجدى) الملفَّ من أمامه ، وأشعل سيجارة أخرى ، وهو يقول :

ــ إننى أعرف طبيعة (نديم) ، أكثر مما يعرفها أى شخص آخر ، فى وزارة الداخلية كلها ، وما دام قد هاجم (رضوان) ، فهناك خطأ ما حتمًا ، ارتكبه (رضوان) هذا ، أو يحدث داخل الشركة ، و (العقرب) يسعى خلفه .

غمغم (حسن) :

ــ عجبًا ! .

نفث (مجدى) دخان سيجارته ، وهو يسأله فى عصبية :

ــ وما العجب فى هذا ؟



التفت إليه (حسن) ، وتطلّع إليه لحظة فى صمت ، ثم قال :

ــ الواقع أن مشاعرك نحو (العقرب) تُدهشنى ياسيّدى ؛ فأنت تبغضه ، كما لم تبغض شخصًا من قبل ، ولكنك ــ فى الوقت ذاته ــ تثق تمامًا فى أنه رجل شريف ، لا يهاجم إلا المجرمين ، فكيف يتفق هذا وذاك ؟

ساد صمت تام فى الحجرة ، بعد أن ألقى (حسن) سؤاله ، وانعقد حاجبا (مجدى) فى شدة ، وبرزت شفته السفلى إلى الأمام ، وهو يفكّر فى الجواب ، ثم لم يلبث أن سحب نفسًا عميقًا من سيجارته ، ورفع عينيه إلى (حسن) ، وقال فى حزم :

ــ إنه يخالف القانون .

هتف (حسن) :

ــ فقط ؟!

أجابه (مجدى) فى صرامة :

ــ هذا يكفى .. إننا رجال قانون ، ومهمتنا هى الحفاظ عليه ، ومنع أى مخلوق من تجاوزه ، ونحن نتقاضى أجرنا مقابل هذا .

قال (حسن) :

ــ هذا صحيح ، ولكن لو أن (العقرب) شخص آخر ، وليس (نديم فوزى) ، فهل كنت ستقاتله بنفس الشراسة والعنف ؟

أصاب هذا السؤال (مجدى) فى الصميم ..

هل يقاتل (العقرب) لأنه يخالف القانون حقًا ، أم لأنه الشخصية التى يختفى خلفها (نديم فوزى) ، ليحقق العدالة بأسلوبه الخاص ، الذى قد لا يتفق ــ فى كثير من الأحيان مع القانون المكتوب ؟..

أنبأه عقله بالجواب الصحيح على الفور ، إلا أن عناده رفض الاعتراف به ، فاعتدل فى صرامة ، وهو يجيب (حسن) :

ــ بالطبع .

وعلى الرغم من صرامته ، كانت كلمته تفتقر إلى رنة خاصة .. رنة الصدق ..

تحرَّك (نديم) حركة غريزية سريعة ، عندما دوى صوت الرصاصتين . إلا أنه لم يلبث أن تجمّد فى مقعده ، وهو يتطلّع فى دهشة إلى الرجلين . وقد تراجعا فى ذعر وألم ، وكل منهما يمسك يده اليمنى ، بعد أن فقد مسدّسه . فى حين أمسكت (غادة) مسدّسها ، الذى تتصاعد الأدخنة من فوهته . وهى تقول فى سخرية :

ــ تبًا لكم أيها الأوغاد .. ألا تحترمون وجود امرأة جميلة ؟

تطلّع الرجلان إلى مسدّسها المصوّب إليهما فى دهشة وذعر ، فى حين عاد (نديم) يعتدل فى مقعده ، وهو يسألها فى هدوء عجيب :

ــ كيف توقّعت هذا ؟

هزّت كتفيها ، وقالت :

ــ الغريزة الأنثوية ياعزيزى ، التى ترفض أنت الاعتراف بها ، على الرغم من أنها قد صدقت أمس ، عندما أفلتنا دون قتال ، واليوم مع هذين الوغدين .

تطلّع إليها لحظة فى صمت ، دون تعليق واحد ، ثم أدار عينيه إلى الرجلين . فى نفس اللحظة ، التى اقتحم فيها (أحمد) الحجرة ، هاتفًا فى ذعر :

ــ ماذا حدث ؟

لم يكن يحتاج إلى جواب ، مع ذلك المسدّس فى يد (غادة) ، فتراجع قائلًا فى توتر :

ــ أأنتما بخير ؟

أجابه (نديم) فى هدوء :

ــ نعم يا عم (أحمد) .. أنا و (غادة) بخير .. اتركنا وحدنا .

غادر (أحمد) الحجرة فى سرعة ، وأغلق بابها خلفه ، فعاد (نديم) يرفع عينيه إلى الرجلين ، وهو يسألهما فى لهجة صارمة مخيفة :

ــ من أرسلكما ؟

تبادل الرجلان نظرة متوتّرة ، ثم قال أحدهما فى خشونة :

ــ هل تتوقّع الحصول على جواب ؟

أجابه (نديم) فى برود :

ــ بالطبع .

ثم سأل (غادة) ، دون أن يلتفت إليها :

ــ هل تحملين كاتم الصوت يا عزيزتى ؟

التقطت (غادة) من حقيبتها أنبوبًا معدنيًّا قصيرًا ، أدارته عند فوهة مسدّسها ، وهى تقول فى لهجة أقرب إلى الجذل :

ــ ها هو ذا مستعد للعمل .

قال أحد الرجلين ، فى لهجة لم تنجح فى إخفاء توتّره :

ــ خدعة سخيفة .. لن يمكنكما قتلنا .

جذبت (غادة) إبرة مسدّسها ، وهى تقول ساخرة :

ــ هل تراهن ؟

وبنفس الصرامة المخيفة ، سأله (نديم) :

ــ من أرسلكما ؟

توترت نظرات الرجلين ، وازدرد أحدهما لعابه فى صعوبة ، وقال :

ــ أعلم أنكما لن تقتلانا .

قالت (غادة) فى لهجة توحى بالضجر :

ــ إنك تضيع وقتك يا (نديم) .. دعنى أتبع معهما الأسلوب نفسه ، الذى اتبعته مع الرجال الثلاثة ، فى القضية السابقة ، سأطلق النار على رأس أحدهما ، فيعترف الآخر على الفور .

كانت مخادعة فى كل ما تقول ، إلا أن عبارتها جمّدت الدماء فى عروق الرجلين ، خاصة عندما رفعت مسدّسها إلى رأسيهما ، مستطردة :

ــ هيا .. من منكما يفضّل الموت ، مع حماية زعيمه ؟

هتف أحدهما فى رعب :

ــ لا تقتلينى يا سيّدتى .. أرجوك .. سأخبرك بكل ما نعرف .. لقد أرسلنا (وجيه) .. (وجيه شعبان) .. وأقسم إننا لا نعلم شيئًا عن سبب قتلكما ، أو حتى من يرغب فى هذا ، فـ(وجيه) يتلقّى الطلب ، ويختار من ينفّذه منا .. أقسم لكما إن هذا كل شىء .

تبادل (نديم) و (غادة) نظرة ، تحمل الكثير من المعانى ، ثم سأل (نديم) الرجل :

ــ وأين نجد (وجيه) هذا ؟

أجابه الرجل :

ــ لست أدرى .. أقسم إننى لست كاذبًا ، فنحن نتلقى الاسم والعنوان هاتفيًا ، ثم نحصل على نقودنا بالبريد ، بعد التنفيذ .

تبادل (نديم) و (غادة) نظرة أخرى ، ثم قال (نديم) :

ــ حسنًا .. لن نقتلكما .

تنهّد الرجلان فى ارتياح ، إلا أن الرعب لم يلبث أن عاد إلى قلبيهما ، عندما أضاف فى صرامة ، وهو يرفع سمّاعة الهاتف :

ــ سنكتفى بتسليمكما إلى العدالة .

سألته (غادة) :

ــ هل ستتصل بالشرطة حقًّا ؟

أجابها فى حزم :

ــ بالطبع .. هكذا ينبغى أن يفعل (نديم فوزى) ، فهو ليس (العقرب) ..

أليس كذلك ؟

ابتسمت قائلة :

ــ بلى .. إنه ليس (العقرب) .

وعادت تصوّب مسدّسها إلى الرجلين فى هدوء ..

٭ ٭ ٭

نفث العقيد (مجدى) دخان سيجارته فى عصبية ، وهو يتابع ببصره سيارة الشرطة ، التى ابتعدت حاملة المجرمين ، ثم التفت إلى (غادة) ، وقال فى حدة :

ــ يبدو أنك تسرفين كثيرًا ، فى استخدام مسدسك هذه الأيام .

أجابته ساخرة :

ــ هل كنت تفضّل أن أستخدمه لطلاء شفتىَّ ؟

أجابها محتدًّا :

ــ نعم ، فربما تحسنين استخدامه حينذاك .

ثم أشار إليها ، مستطردًا فى غضب :

ــ أما بالنسبة لى ، فسأسعى لرفض تجديد ترخيص حمل السلاح ، الذى تملكينه ، فى المرة القادمة .

هزّت كتفيها فى لا مبالاة ، وقالت :

ــ يمكنك أن تحاول على الأقلّ .

كان يشعر بالغيظ ، كلّما تحدّث إليها ؛ لذا فقد تحوّل منها إلى (نديم) ، وسأله فى خشونة :

ــ هل لك أن تخبرنى ، لماذا حاول هذان الوغدان قتلك ؟

أجابه (نديم) فى برود :

ــ لا يمكننى أن أخبرك .

سأله فى غلظة :

ــ لماذا ؟

أجاب (نديم) :

ــ لأننى كنت أنتظر الجواب منك .

هتف (مجدى) مستنكرًا :

ــ منى أنا ؟!

أجابه (نديم) :

ـــ بالطبع ، فأنت رجل الشرطة ، وأنا مجرَّد مدنى ، تعرّض لمحاولة قتل متعمّدة فى مكتبه ، من شخصين استقبلهما كعميلين عاديين ، والمفروض أن يقدح الشرطى زناد فكره ، ويجمع التحريات ، ويستجوب الجميع ، ثم (يطرقع) إصبعيه ، ويلقى حل كل الغموض على مسامع الجميع .

استمع إليه (مجدى) مشدوهًا ، ثم هتف :

ـــ أين رأيت رجال الشرطة يفعلون هذا ؟

أجابه (نديم) بجدية بالغة :

ـــ على شاشة السينما .

أطلقت (غادة) ضحكة عالية ، فى حين عقد (مجدى) حاجبيه فى غضب ، وكرَّر عبارته الشهيرة :

ـــ ستسقط فى يدى يومًا يا (نديم) ، وسأثبت أنك ..

أكملت (غادة) فى سرعة :

ـــ (العقرب) شخصيتان لرجل واحد .. أليس هذا ما أردت قوله يا عزيزى (مجدى) ؟

احتقن وجهه ، وهو يرمقها بنظرة نارية ، فأضافت ساخرة :

ـــ معذرة ، ولكن حتى الأغبياء يمكنهم حفظ العبارات ، التى تتكرَّر على نحو مثير للملل .

قال (مجدى) فى غضب :

ـــ ولكنهم يكون عندما تتحوَّل إلى حقائق .

وكعادته أيضًا ، اندفع مبتعدًا فى سرعة ، فقالت (غادة) :

ـــ كم يبدو لى صديقنا (مجدى) مكرّرًا ومملًا .

قال (نديم) ، وهو يقودها إلى داخل البناية :

ـــ دعك من (مجدى) الآن ، وأخبرينى .. ما الذى يوحى إليك به ما حدث ؟

أجابته ، وهى تصعد إلى جواره ، فى درجات السلم :

ـــ إنهم يحاولون قتلنا .

هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ هناك ما هو أخطر .. لقد أدرك أحدهم ، بوسيلة أو بأخرى ، أن (نديم) و (العقرب) هما شخص واحد .

توقَّفت هاتفة :

ـــ يا إلهى !.. هذا صحيح .. كيف لم أنتبه إليه ؟

قال فى هدوء :

ـــ ربما احترقت دائرة (ترانزستور) ، فى غريزتك الأنثوية .

هتفت :

ـــ هل تمزح ، أم أن هذا مجرد هلوسة سمعية ؟

تجاهل تعليقها ، وقال :

ـــ المهم أن هذا يعنى أن الحرب لم تعد موجَّهة إلى (العقرب) وحده ، الذى يستطيع أن يختفى وقتما يحلو له .. بل لقد أصبح القتال على الجبهتين ، وهذا أمر بالغ الخطورة ، خاصة عندما نواجه عصابة عنيفة شرسة كهذه .

سألته فى قلق :

ـ وماذا علينا أن نفعل الآن ؟

تطلَّع طويلًا إلى عينيها ، ثم أجاب فى هدوء وحسم :

ـ سنتبع خطة (نابليون) يا عزيزتى ، وسنستخدم أفضل وسيلة للدفاع عن أنفسنا .

وبدا صوته أشبه بكتلة من الصرامة والحزم ، وهو يستطرد :

ـ الهجوم .

***



٧ ـ الخطة ..

فركت زوجة الدكتور (جمال) كفيها فى عصبية ، وهى تراقب زوجها ، الذى راح يعدّ حقيبته فى توتر ، وحاولت أن تخفى نبرة الخوف فى صوتها ، وهى تسأله :

ـ أمن الضرورى أن تسافر ؟



أجابها ، وهو يحشر ملفًا أخيرًا داخل الحقيبة ، ثم يُغلقها فى إحكام :

ـ نعم .. لقد بدأت الغيوم تحيط بالأمر ، وأشعر أن كل شىء سينكشف هذه المرة ، والأفضل أن أرحل ، قبل أن نخسر كل شىء .

قالت فى خوف ، وهى تنظر إلى ساعة يدها ، التى أشارت إلى الثانية تساحا :

ــ ولكنها ليست أوّل مرة .. هل نسيت كيف تعرّضتم لفحص كامل ، من كل أجهزة الدولة ، دون أن يكشف أحدها لعبتكم ؟.. إنكم ستتجاوزون الأزمة هذه المرة أيضًا .

هزّ رأسه فى عنف ، وقال :

ــ لا .. الأمر يختلف اختلافًا ضخمًا ، ففى المرة السابقة كنا نواجه القانون ، الذى يحتم وجود أدلّة مادية ، لإلقاء القبض على أى متهم ، أما فى هذه المرة ، فنحن نواجه عدوًا مجهولًا ، لا يبالى بالنظم والقوانين ، ويسعى لتحطيمنا بأى ثمن .

قالت فى ضراعة :

ــ يمكنك أن تبقى و ...

قاطعها فى عصبية :

ــ لماذا ؟.. ما المبرر للبقاء ؟.. لقد جمعنا ثروة طائلة ، تبلغ عشرة ملايين دولار ، فى بنوك (سويسرا) ، بالإضافة إلى المستشفى الخاص ، الذى يمكنك بيعه بأربعة ملايين على الأقل ، فلماذا أبقى ، حتى أقع فى قبضة الشرطة ، وأخسر كل شىء ؟

حمل حقيبته ، واندفع نحو الباب ، وهو يستطرد :

ــ ولقد كنت أستعدّ لمثل هذا اليوم .. كنت أعلم أنه سيأتى حتمًا ، مهما طال الزمن .. إننى أحمل جواز سفر آخر ، لا تحتاج المهنة المدوّنة به إلى موافقة جهة عمل ، للسفر خارج البلاد ، وسأسافر بعد ساعتين إلى (سويسرا) ، وستلحقين بى ، بعد بيع المستشفى ، وهناك سنحيا حياة الملوك ، دون خوف أو قلق .

تبعته فى خطوات أقربُ إلى العدو ، وهى تقول :

ــ ولكن ماذا عن الآخرين ؟. فرارك قد يكشف أمرهم .

لوّح بذراعه كلها ، صائحًا :

ــ فليذهبوا إلى الجحيم .

توقّفت عند باب الفيلا ، وهو يسرع إلى سيارته ، قائلًا :

ــ إلى اللقاء .. سأنتظرك فى (جنيف) ، فى أسرع وقت ممكن .

لوّحت بكفها ، وغمغمت وهو ينطلق بالسيارة :

ــ سأحاول .

ثم انحدرت من عينيها الدموع ..

أما (جمال) ، فلم يكن فى قلبه مكان للعواطف ، فى هذه اللحظة ، بل كان ينطلق بسيارته فى عصبية ، وهو يحدّث نفسه ، قائلًا :

ــ نعم .. فليذهب الجميع إلى الجحيم .. حتى زوجتى السخيفة هذه ، لو استطاع الشياطين احتمالها .. لقد سئمت كل شىء ، وسأكون الرابح الوحيد ، عندما تنقلبَ المائدة عليهم .. فليرفضوا الفرار ، لو شاء لهم أن يفعلوا ، أما أنا فسأرحل ، وأربح ، و ...

ارتجف جسده فى رعب ، عندما ارتفع من المقعد الخلفى لسيارته صوت صارم ، يقول :

ــ أأنت واثق ؟

رفع (جمال) عينيه إلى مرآة السيارة فى رعب ، ثم ضغطت قدمه كابح السيارة فى عنف ، ولم تكد السيارة تتوقّف ، حتى فتح بابها ، وحاول أن يعدوا هاربًا منها ، وهو يصرخ :

ــ لا .. لا ..

ولكن صاحب القناع الأسود ، الذى رآه فى مرآة سيارته ، أمسكه من عنقه بقبضة حديدية ، وهو يقول :

ــ لم يحن وقت الفرار بعد .

أعاده (العقرب) إلى السيارة قسرًا ، وأجلسه على مقعد القيادة ، وهو يستطرد :

ــ هيا يا رجل .. سنتنزّه معًا بعض الوقت .. انطلق بالسيارة .

تساقطت الدموع من عينى (جمال) ، وهو ينطلق بالسيارة ، قائلا :

ــ الرحمة أيها (العقرب) .. إننى لم أفعل شيئًا .. لم تكن فكرتى أبدا .. لقد أقنعونى بها و ....

لم يستطع إكمال عبارته ، وإنما أخذ ينتحب فجأة كالأطفال ، فقال (العقرب) فى صرامة :

ــ جفف دموعك يا رجل ، وقُدْ السيارة كما ينبغى .

جفَّف (جمال) دموعه ، ولكنه ظلّ ينتحب ، وهو يقول :

ــ أرجوك أيها (العقرب) .. هناك طائرة ستنطلق إلى (سويسرا) بعد ساعتين ، وأنا مستعد لدفع ما تطلبه ، حتى تتركنى لألحق بها .

سأله (العقرب) فى هدوء :

ــ كم يمكنك أن تدفع ؟

أجابه فى لهفة :

ــ مائة ألف جنيه .

أجابه (العقرب) :

ــ يا له من رقم تافه !

هتف (جمال) :

ــ فليكن .. سأمنحك عشرة أضعاف هذا المبلغ .. مليون جنيه دفعة واحدة .. بل مليون دولار .. ما رأيك بمليون دولار ؟

سأله (العقرب) فى اهتمام :

ــ وماذا لو قلت أننى أطلب ما هو أكثر ؟

هتف (جمال) فى ضراعة :

ــ سأمنحك أى شئ تطلبه .. سأمنحك مليونين .. بل ثلاثة .. بل

قاطعه (العقرب) فى غضب :

ــ عجبًا !.. هل تربح القذارة كل هذه الملايين ؟

عادت الدموع تسيل من عينى (جمال) ، وهو يقول :

ــ أرجوك ..

قال (العقرب) فى صرامة :

ــ لو أنك تسأل عن الثمن ، فهناك ثمن واحد ، يمكننى أن أقبله .

سأله (جمال) فى لهفة :

ــ ما هو ؟

أجاب (العقرب) :

ــ الوسيلة .

شحب وجه (جمال) ، وارتجف صوته ، وهو يغمغم :

ــ أية وسيلة ؟

قال (العقرب) ، فى لهجة جمدت لها دماء (جمال) :

ــ الوسيلة التى تسرقون بها البترول .

انفغر فاه (جمال) ، وهو يحدّق فى مرآة السيارة ، التى تنقل إليه صورة (العقرب) ، من المقعد الخلفى ، وظلّ صامتًا برهة ، قبل أن ترتجف شفتاه ، ويتراقص قلبه بين ضلوعه هلعًا ، وهو يقول :

ـــ التى نسرق بها البترول ؟!

قال (العقرب) فى لهجة مخيفة :

ـــ إننى أكره إضاعة الوقت .

ازدرد (جمال) لعابه فى صعوبة ، وبذل جهدًا ليقول :

ـــ نحن لا نسرقه بالمعنى المفهوم ، وإنما ...

توقّف عن الاستطراد ، وكأنما يعجز عن كشف السر ، فقال (العقرب) فى صرامة :

ـــ قلت أننى أكره إضاعة الوقت .

أجاب (جمال) فى سرعة :

ـــ حسنًا .. حسنًا .. الواقع أننى المسئول تقريبًا عن هذا ، ولذلك كنت أحصل دائمًا على نسبة أعلى من الآخرين .. صحيح أنها لا تبلغ نسبة (كامل) بك ، ولكنها ...

قاطعه صرير إطارات سيارة مباغت ، قبل أن تنحرف سيارة ضخمة نحو سيارته ، فصرخ :

ـــ لا .. لا تقتلونى .

ومع صرخته مال بالسيارة بحركة غريزية ، فصاح به (العقرب) :

ـــ احترس .

ولكن السيارة اصطدمت بالإفريز ، وقفزت فوقه على نحو خطر ،

ثم ارتطم جانبها بجدار ضخم ، ودفع الاصطدام رأس (جمال) إلى الأمام ، فاصطدم بزجاج السيارة الأمامى فى عنف ، ثم سقط على مقعده فاقد الوعى ..

وبسرعة تحرَّك (العقرب) ..

كان يعلم أن هذا التصادم مقصود ، وأن قاصديه سيهرعون إلى السيارة ، للتأكد من نتائج عملهم ..

وسيجدونه داخلها ..

بلا سلاح ..

وكان من المحتم أن يقاتل ..

مهما كان الثمن ..

وبسرعة نزع (نديم) قناعه وقفازيه ، ودسّهما فى جيبى سرواله ، وانتظر حتى اقترب وقع الأقدام من السيارة ، ثم دفع بابها بحركة مباغتة ، وقفز خارجها ..

ورأى (نديم) أمامه رجلًا أعزل ، تراجع فى دهشة ، عندما وقع بصره عليه ، فأسرع يهاجمه هاتفًا :

ـــ من الواضح أنك لم تتوقّع وجودى .

ثم هوى على فكه بلكمة عنيفة ، مستطردًا :

ـــ وهنا تكمنُ المفاجأة .

تلقَّى الرجل لكمة لم يكن يتوقّعها ، فدار حول نفسه دورة كاملة ، ثم سقط على وجهه فاقد الوعى ..

وتوقّف (نديم) ، هاتفًا :

ـــ يا إلهى !.. لقد انتهت المعركة بأسرع مما كنت تتوقع .
ولكنه فوجئ بصوت غاضب يقول :
ـــ من قال هذا ؟
رفع عينيه بسرعة إلى مصدر الصوت ، ورأى ذلك الرجل الآخر ، الذى غادر السيارة ، ووقف يصوِّب إليه مسدسه ..
ويضغط الزناد ..

* * *



٨ ـــ سقوط ..

توقفت سيارة (كامل شكرى) الفارهة ، أمام ڤيلا الدكتور (جمال) ، وهبط سائقها بسرعة ، وانحنى انحناءة كبيرة ، وهو يفتح بابها الخلفى لـ (كامل) ، الذى غادرها فى وقار ، وعبر بوَّابة الڤيلا فى خطوات هادئة بطيئة ، حيث استقبلته زوجة (جمال) ، وهى تفرك كفيها بنفس الحركة العصبية ، وسألته فى لهفة :
ـــ هل لحقتم به ؟
ابتسم (كامل) ، وهو يجيبها فى هدوء :
اطمئنى يا سيِّدتى .. لقد أرسلت بعض الرجال خلفه ، والبعض الآخر إلى المطار ، لمنعه من السفر .. لقد أحسنت صنعًا بالاتصال بى ، قبل أن ينجح ذلك الغبى فى الفرار .
قالت فى توتر :
ـــ كان سيفسد كل شىء .. فراره يعنى أن تتوقَّف العملية كلها ، أو ينكشف الأمر .
أومأ (كامل) برأسه إيجابًا ، وقال :
ـــ لست أظن هذا .
ثم انتقى أفضل مقاعد الردهة الوثيرة ، وجلس فوقه ، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، واستطرد بابتسامة لزجة :
ـــ عندما وضعت خطتى العبقرية هذه ، لم أغفل هذا الاحتمال يا سيِّدتى .. احتمال توقُّف أحد أفراد الفريق عن العمل ، لسبب أو لآخر ، ولقد وضعت فى الخطة احتمالات بديلة .

سألته فى فضول :

ــ مثل ماذا ؟

أجابها فى زهو :

ــ أفضل الحفاظ على هذا السر وحدى .

ثم لوّح بكفه ، واستطرد :

ــ وخاصة عندما يكون الطرف الراغب فى معرفته سيّدة ؛ فالسيدات لا يمكنهن حفظ الأسرار .. أليس كذلك ؟.. السر بالنسبة لهن إما أصغر مما ينبغى ، فلا يستحق الحفاظ عليه ، أو أكبر مما ينبغى فلا يستطعن كتمانه .

قالها وقهقه ضاحكًا ، وكأنما راقت له دعابته ، فمطّت السيّدة شفتيها فى امتعاض ، وقالت فى غيظ :

ــ هل تملك القدرة على الضحك ، فى مثل هذه الظروف ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ــ ولم لا ؟.. ما زلت أملك كل الخيوط يا سيّدتى ، وسأنتظر عودة رجالى بزوجك ، لألقنه الدرس الذى يحتاج اليه .

وعلى الرغم من ابتسامته ، شعرت زوجة (جمال) بالخوف ، وهو يستطرد :

ــ وسيكون درسًا قاسيًا .. قاسيًا جدًا .

* * *

لم يكد (نديم) يلمح ذلك المسدّس ، المصوَّب إليه ، حتى مال جانبًا فى سرعة ، ثم انحنى متفاديًا رصاصة لم تنطلق ، واندفع نحو الرجل ..

والواقع أن الرجل قد أصيب بالذهول ..

لقد صوّب مسدّسه إلى العشرات ، ورآهم جميعًا يرتجفون أمام فوهته القاتلة ، ويتلعثمون ، ويبكون ، وينهارون ، ولكنه لم يشاهد أبدًا من ينقضّ عليه بهذه السرعة ، وكأنما يسعده تلقى رصاصة فى صدره ..

ولقد أفاد هذا الذهول (نديم) كثيرًا ..

فالرجل لم يضغط الزناد ..

تجمّدت سبّابته ، فى طريق اعتصار الزناد ، فلم تنطلق الرصاصة ، حتى بلغه (نديم) ، واستجمع قوته كلها فى قبضته ، وهوى بها على فك الرجل ، فى لكمة كالقنبلة ، ارتجّ لها كيان الرجل كله ، قبل أن يرتطم ظهره بالسيارة ، ثم يسقط على وجهه فاقد الوعى ..

ولكن الأمر لم ينته عند هذه النقطة ..

لقد سقط الرجل أرضًا ، فى نفس اللحظة التى توقّفت فيها سيارة من سيارات الشرطة إلى جوار (نديم) ، وقفز رجالها يصوّبون أسلحتهم إليه ، فرفع ذراعيه فى هدوء ، وهو يقول :

ــ مهلًا .. لقد هاجمنى هذان الرجلان ، وكنت أدافع عن نفسى .

أجابه الضابط فى صرامة :

ــ ستقول هذا فى أوراق التحقيق ، أما الآن ، فأنا ألقى القبض عليك .

وبسرعة أحاطت الأغلال بمعصمى (نديم) ..

(العقرب) ..

* * *

هتف (مجدى) فى وجه الرائد (حسن) بعصبية :

ــ إنها المرة الثانية ، التى توقظنى فيها من نومى ، بعد الثانية والنصف صباحًا يا (حسن) .

قال (حسن) فى لهفة :

ــ الأمر واحد أيضًا فى الحالتين يا سيِّدى .

انتفض (مجدى) ، وهتف :

ــ (العقرب) ؟!

أجابه (حسن) :

ــ بل (نديم) .. (نديم فوزى) .

واستدرك فى سرعة :

ــ لو أنه هو (العقرب) .

عقد (مجدى) حاجبيه فى شدة ، وهو يسأله :

ــ ماذا عن (نديم) ؟.. هل أصابه مكروه ؟

مال (حسن) نحوه ، وقال :

ــ لقد وقع فى قبضتنا .

أمسك (مجدى) كتفيه ، وهو يسأله فى انفعال :

ــ ماذا تعنى ؟

أجابه (حسن) مبتسمًا :

ــ لقد ألقت سيارة شرطة النجدة القبض على شاب ، يرتدى الملابس السوداء ، مع رجلين يحمل كل منهما مسدسًا ، وهذا الشاب هو (نديم) .

برقت عينا (مجدى) ، وهتف :

ــ ملابس سوداء .

ثم صاح بـ(حسن) ، وهو يسرع إلى حجرة نومه :

ــ اتصل بهم هاتفيًا يا (حسن) . ومُرْهُمْ ألا يحاولوا تفتيشه . وليحتفظوا به فى حجرة الضابط النوبتجى ، حتى أصل إليهم .



وهتف فى سعادة ظافرة :

ــ أخيرًا يا (نديم) .. أخيرًا وقعت فى قبضتى .

وأطلق ضحكة مزهوة ..

* * *

كان لقاء عجيبًا بحق ..

لقاء (مجدى) و (نديم) ..

اقتحم (مجدى) حجرة الضابط النوبتجى فى لهفة ، ثم تجمّد فى مكانه ، وهو يتطلّع إلى (نديم) ، وكأنما صدق الآن فقط أنهم قد أوقعوا به ..

وطوال دقيقة كاملة ، لم ينطق أيهما بكلمة ، أو ينبس بحرف واحد ..

ثم كان (نديم) صاحب أوّل كلمة ، مزّقت حبل الصمت ، وهو يقول :

ــ كيف حالك يا (مجدى) ؟

لم يجبه (مجدى) ، بل ظلّ يتطلّع إلى زيه الأسود لحظات ، قبل أن يقول ، فى كلمات اختلطت بتنهدة ارتياح :

ــ أخيرًا يا (نديم) .

قال (نديم) فى هدوء :

ــ أخيرا ماذا ياعزيزى (مجدى) ؟

ابتسم (مجدى) فى سعادة ، وقال :

ــ أخيرًا وقعت بزيك الأسود .

قال (نديم) فى برود :

ــ هل يمنع القانون ارتداء الثياب السوداء ؟



لم يغضب (مجدى) هذه المرة ..

ملأت نشوة الظفر عروقه ، فلم تترك فيها مجالًا لأية مشاعر أخرى ولى ارتياح ، أجابه (مجدى) :

ــ لا يا (نديم) .. القانون لا يمنع هذا ، ولكنه يضعك فى خانة المتهم الأوَّل ، لو عثرنا معك على باقى زى (العقرب) .

والتفت إلى الضابط النوبتجى و (حسن) ، قائلًا :

ــ اقتربا .. أحتاج لشاهدين .

اقترب الاثنان منه ، فدسّ يده فى جيب سروال (نديم) الأيمن ، وهو يقول :

ــ راقبا ما أخرجه من جيبه .

أخرج القفازين السوداوين ، قائلًا :

ــ هل رأيتما ؟

قال (نديم) بنفس البرود :

ــ أظن القانون لا يمنع ارتداء القفازات السوداء أيضًا .

تطلّع (مجدى) إلى عينيه مباشرة ، وقال :

ــ وماذا عن الأقنعة السوداء ؟

وابتسم مستطردًا :

ــ صدقنى يا (نديم) ، عندما أخرج قناع (العقرب) أو بطاقته من جيبك ، فى حضور شاهدين ، سيعنى هذا أن لعبة الشخصية المزدوجة هذه قد انتهت .

لم ينبس (نديم) ببنت شفة ، وإنما أطلّ القلق من عينيه واضحًا ، فى حين مدّ (مجدى) يده نحو جيب السروال الآخر ، وهو يقول :

ــ الآن يا (نديم) .. الآن تحين النهاية .

وكان على حق ..

عندما يخرج القناع ، تكون النهاية قد حانت ..

نهاية (العقرب) .

° ° °

انتهى الجـــزء الثـــانى بحمـــد الله

ويليه الجزء الثالث ، فى العدد الثالث عشر من

كوكتيل ٢٠٠٠



أعرف ماذا فعلت

(قصة قصيرة)

ارتجفت أصابع (صالح) ، وهو يدفع باب حجرة مكتب خاله (عبد الفتاح) ، وتسارعت نبضات قلبه فى قوة ، وهو يخطو إلى داخل الحجرة ، ويغلق بابها خلفه فى إحكام ، ثم لم يلبث أن ألقى جسده على أوَّل مقعد صادفه ، وراح يلهث فى شدة ، وكأنما أتى مجهودًا جبارًا ..

كان يرتعد ، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، على الرغم من ثقته الشديدة بأن ڤيلا خاله خالية تمامًا ، غارقة فى الظلام ، لا تتردَّد فيها أنفاس سوى أنفاسه اللاهثة ..

ولكنه لم يكن سارقًا محترفًا ، حتى يمكنه تمالك أعصابه ، وهو يُقدم على أوَّل عملية سرقة فى حياته ، بل إنه على العكس ــ صاحب أعصاب أضعف مما ينبغى ..

صحيح أنه أعدَّ خطته فى ذكاء ، ونجح فى سرقة مفتاح خزانة خاله ،

وصنع نسخة منه ، وإعاده ، دون أن يشعر خاله بهذا ، ثم انتظر فى صبر ، حتى سافر خاله مع أسرته إلى (الاسكندرية) ، كعادتهم فى الإجازات الصيفية ، وأسرع ليتمّ خطته ، ويستولى على كل الأموال ، فى خزانة خاله البخيل ..

وعلى الرغم من هذا ، فهو ليس سارقًا محترفًا ..

إنها الظروف ، التى دفعته إلى هذا ..

ظروف تلك العادة القبيحة ..

الميسر ..

إن (صالح) مقامر من الطراز الأوَّل ، لا يمكنه مقاومة الجلوس على مائدة القمار ، كلما رأى أوراق اللعب فى أيدى الآخرين ..

أو حتى ملقاة وحدها ..

ولكنه ليس من الطراز الأوَّل ، بالنسبة للربح والخسارة ..

إنه يخسر أكثر مما يربح ..

أكثر بكثير ..

وفى هذه المرة كانت خسارته فادحة ..

لقد خسر كل ما يملك ، وأعطى دائنيه بعض الشيكات دون رصيد ، وهو يعلم أنهم لن يتردَّدوا فى إلقائه خلف القضبان ، لو لم يسدِّد لهم ديونه ، حتى آخر قرش ، وفى الموعد المحدود ..

ولقد طلب من خاله أن يقرضه المبلغ ..

ولكن الخال رفض ..

ولم يكتف بالرفض ، وإنما راح يكيل له الاتهامات ، وينعته بمختلف النعوت ..

وهنا نبتت الفكرة فى رأسه ..

لم لا يعاقب خاله ، بسرقة أمواله ؟

راقت له الفكرة ، فوضعها على الفور موضع التنفيذ ..

فلماذا يرتعد هكذا إذن ، عندما حانت اللحظة الحاسمة ؟..

تطلّع من مقعده إلى الخزانة ، وشعر بساقيه تخذلانه ، وراودته فكرة إرجاء العملية كلها ، ثم لم يلبث أن تذكّر أن خاله يكتفى عادة بإيصال عائلته إلى (الاسكندرية) ، ثم يعود فى اليوم التالى لمواصلة عمله ، تاركًا الأسرة هناك ، وهذا يعنى أن إرجاء العملية يساوى فشلها ، وإضاعة الفرصة المناسبة إلى الأبد ، ودخوله السجن ، و ...

لا .. لن يرجئ العملية ..

نهض فى حزم ، واتجه إلى الخزانة ، ودسّ المفتاح فى ثقبها ، وهو يتساءل :

لماذا يستخدم خاله خزانة عتيقة الطراز إلى هذا الحد ؟..

لم لا يستخدم خزانة حديثة ، ذات أرقام سرية مثلًا ؟..

ولكن هكذا هو ، عتيق الطراز ..

يؤمن بكل الماضى ، ويرفض الحاضر والمستقبل ..

ولكن ما شأنه هو بمعتقدات خاله ، فليحصل على النقود ، ويغادر المكان بسرعة ..

ولن يترك بصماته على الخزانة بالطبع ، فهو يرتدى قفازين مطاطين ..

إنه لم يترك أية فرصة للخطأ ..

ولكن ماذا لو أن الخزانة فارغة ؟..

ارتجف للفكرة ، فأسرع يفتح باب الخزانة عن آخره ، ثم ابتسم فى ارتياح ..

ها هى ذى الأموال تطالعه ..

رزم أوراق النقد ، التى يخفيها خاله فى منزله ، خوفًا من الضرائب ..

وبسرعة أسرع ينقل النقود إلى حقيبته ، ثم أغلق الخزانة ، وانتزع منها المفتاح ، وغادر الفيلا ، وألقى المفتاح وسط حديقتها ، ثم تسلّق سورها الخلفى ، المطلّ على منطقة مهجورة مقفرة ، لن يلمحه فيها أحد ..

لقد نجح ..

نفّذ الخطة كما وضعها تمامًا ..

وها هو ذا يعبر السور إلى الخارج و ...

وفجأة لصطدمت عيناه بعينى رجل ..

رجل متين البنيان ، أشيب الفودين ، يرتدى قميصًا وسروالًا عاديين ، بدا وكأنه ينتظره خارج أسوار الفيلا ، ويرمقه بنظرة نارية صارمة ..

وارتجف (صالح) ، وهو يتطلّع إلى العينين الصارمتين ، وغمغم مرتبكًا :



ـــ إننى أحد سكان الڤيلا ، ولقد قفزت عبر السور بسبب ..

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـــ أعرف ماذا فعلت .

هوى قلب (صالح) بين ضلوعه ، وارتعد صوته ، وهو يقول فى لهجة بدت أقرب إلى الضراعة :

ـــ لم أفعل شيئًا .

كرّر الرجل فى صرامة :

ـــ أعرف ماذا فعلت .

انهار (صالح) على الفور ، وهتف والدموع تتجمّع فى عينيه :

ـــ لم أكن أقصد هذا .. صدقنى .. إننى لست لصًا بطبعى .. إنها الظروف .. الظروف التى ..

قاطعه الرجل مكررًا الجملة نفسها :

ـــ أعرف ماذا فعلت .

انحدرت الدموع من عينى (صالح) ، وهو يقول :

ـــ أرجوك .. لا تتسبّب فى إلقائى فى السجن .. إننى أبغض السجون والقضبان .. أرجوك .

ثم رفع حقيبته إلى الرجل ، هاتفًا :

ـــ سأعطيك نصف ما حصلت عليه .. ما رأيك ؟.. إنه مبلغ ضخم و ...

للمرة الثانية قاطعه الرجل :

ـــ أعرف ماذا فعلت .

أدرك (صالح) ما يعنيه الرجل ..

إنه يطلب الغنيمة كلها ..

لا ريب أنه لص محترف ، أدرك أنه يواجه هاويًا ، فقرّر تجريده من غنيمته ، والاستيلاء عليها لنفسه ..

وهو لص ضخم الجثة ، لن ينجح (صالح) فى مقاومته أبدًا ..

وفى مرارة قال ضارعًا :

ـــ ألا تترك لى شيئًا ؟

بدت عينا الرجل أكثر صرامة ، فارتجف (صالح) ، وناوله الحقيبة مستسلمًا ، وهو يقول :

ـــ ها هى ذى .. ها هى ذى .

ولم يكد الرجل يمسك الحقيبة ، حتى اطلق (صالح) لساقيه الرياح ، مبتعدا عن المكان ، ولم يتوقّف عن الركض ، إلا عندما بلغ منطقة مأهولة بالسكان ، فراح يلهث فى قوة ..

لقد خسر النقود ..

خسر كل ما خطط له ..

وفجأة توقّفت إلى جواره سيارة كبيرة ، وقفز منها رجلان ضخما الجثة ، فتراجع صارخا فى ذعر ، ولكن أحد الرجلين ربّت على كتفه ، قائلا :

ـــ معذرة يا سيّدى .. إننا لن نقصد إفزاعك ، ولكننا نبحث عن رجل .

ردّد فى دهشة :

ــ رجل ؟!

أجابه الآخر :

ــ نعم .. إنه رجل ضخم الجثة ، متين البنيان ، أشيب الفودين ، يرتدى قميصًا وسروالًا عاديين .

تعرّف الرجل على الفور ، فسألهما مرتجفًا :

ــ أهو مجرم خطير ؟

هزّ الأوّل رأسه نفيًا ، وقال :

ــ أبدًا .. إنه وديع للغاية ، ولكنه يحدّق أحيانًا فى العيون بصرامة مفتعلة ، ويردّد دائمًا عبارة واحدة .

شحب وجه (صالح) ، وهو يقول :

ــ عبارة واحدة ؟!

أجابه الرجل مشفقًا :

ــ نعم .. عبارة تقول : « أعرف ماذا فعلت » .. إنه يردّدها دون أن يدرك معناها .. ولكن هذا ما يفعله كل المجانين .. أليس كذلك ؟

ترنّح (صالح) فى مكانه ..

إذن فالرجل مجنون ..

مجرّد مجنون ..

امتلأت نفسه بمرارة لا حدّ لها ، والرجل يسأله :

ــ هل رأيته ؟

أجابه فى حنق :

ــ لا .. لم أره .

وقبل أن يلقى عليه الرجل سؤالًا آخر ، كان قد اندفع عائدًا إلى تلك المنطقة المهجورة ، حيث ترك الرجل ..

المجنون ..

أخذ يعدو بكل ما يملأ نفسه من حنق ومرارة ؛ حتى يمكنه اللحاق بذلك المجنون ، قبل أن يفرّ بالأموال ، التى بذل هو كل هذا الجهد ؛ ليحصل عليها ..

وشعر بالارتياح ، عندما رآه هناك ..

كان يقف فى نفس الموقع ، يعبث بالحقيبة ، محاولًا فتحها ..

وفى صرامة ، اتجه إليه (صالح) ، وقال :

ــ أعطنى الحقيبة .

تراجع الرجل ، وهو يرمقه بتلك النظرة الصارمة ، ولكن (صالح) لم يبال بها هذه المرة ، وإنما صاح فى غضب :

ــ قلت أعطنى الحقيبة .

وأمسك الحقيبة فى قوة ، ولكن الرجل حاول انتزاعها منه ، فصاح (صالح) :

ــ لن أتركها لك .. لن تحصل عليها بعد كل ما فعلته من أجلها .

راح المجنون يصرخ بصوت مزعج ، وهو يتشبّث بالحقيبة فى قوة ، فصاح به (صالح) :

ــ اصمت .. إنك ستوقظ المنطقة كلها .. اصمت .

ولكن المجنون واصل صراخه الحاد المزعج ، فالتقط (صالح) حجرًا كبيرًا .. وصرخ :

ــ قلت لك اصمت .

هوى بالحجر على رأس الرجل مرة .. ومرة .. ومرة ثالثة ..

وصمت المجنون ..

صمت إلى الأبد ..

وتوقَّف (صالح) مبهوتًا ، والحجر الملوَّث بالدماء فى قبضته ، والمجنون تحت قدميه صريعًا ، وقد تهشَّمت جمجمته .

وفجأة ، انطلقت من خلفه شهقة ، جعلته يلتفت إلى مصدرها فى رعب ..

إنهما الرجلان ، اللذان يبحثان عن المجنون ..

لماذا لحقا به إلى هنا ؟..

هل جذبتهما صرخات ذلك المجنون ؟..

لم يطل تساؤله ، وأحد الرجلين يهتف :

ـــ ماذا فعلت ؟

وصاح الثانى :

ـــ أعرف ماذا فعلت .. لقد قتلت الرجل .. قتلته دون ذنب جناه .. أعرف ماذا فعلت .

راح الرجل يردِّدها فى استنكار واشمئزاز ، فى حين تجمَّد (صالح) كالتمثال ، وفى رأسه تدور العبارة نفسها ..

نعم .. أعرف ماذا فعلت .. ولكن عزائى الوحيد هو أننى لن أذهب إلى السجن ، بل إلى الحبل ..

حبل المشنقة ..

وفجأة انطلق (صالح) يقهقه فى جنون ، وشقّ صوته ظلام الليل ، وهو يصرخ :

ـــ نعم .. أعرف ماذا فعلت .. أعرف ماذا فعلت ..

وترك الحقيبة تسقط ..

بلا مبالاة ..

* * *

١ ــ تحذير ..

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد ، على العاصمة الفرنسية (باريس) ، عندما عبرت على مقربة من برج (إيفل) العملاق سيارة حمراء ، فرنسية الصنع ، بسرعة كبيرة ، جعلتها تزايل منطقة البرج فى ، ثوان معدودة ، ثم تواصل طريقها منحرفة بنفس سرعتها ، مما جعل إطاراتها تطلق صريرًا مخيفًا ، تلاشى بسرعة فى سكون الفجر ، قبل أن يخفف قائد السيارة من سرعتها ، ويجتاز بها طريقًا جانبيًا ، إلى مبنى عتيق الطراز ، من طابقين ، أوقف السيارة أمام بابه ، وغادرها بملامح حادة ، وأنف معقوف ، إلتقى فى أعلاه حاجبان كثان ، على نحو بدا وكأنه جزء من قسمات الرجل الطبيعية ، أو تعويض عن رأسه الأصلع ، الذى يحاول عبثًا إخفاءه بخصلات طويلة من الشعر ، بدت أشبه بأغصان جافة ، فوق صحراء جرداء لامعة ..

وفى توتر ملحوظ ، دق الرجل باب المنزل بقبضته ، وهو يغمغم بكلمات غير مسموعة ، ثم راح يفرك كفيه داخل القفازين فى عصبية ، حتى فتح الباب رجل ضخم الجثة ، يوحى تورم عينيه بأن الطرقات قد أيقظته من نوم عميق ، وسأل قائد السيارة فى غلظة .

ــ ماذا هناك ؟

أزاحه قائد السيارة عن طريقه ، وهو يسرع إلى الداخل ، قائلًا :

ــ هل استيقظ (كاهان) ؟

قال الضخم بلهجته الغليظة :

ــ ليس بعد .. إنها لم تبلغ السادسة ، و ...

قاطعه قائد السيارة فى حزم :

ــ أيقظه إذن .

عقد الضخم حاجبيه ، وقال :

ــ لن يروق له ذلك ، فهو يكره أن ..

قاطعه قائد السيارة فى غضب :

ــ فليتقدم بشكوى إلى الرؤساء لو أراد ، المهم أن يستيقظ الآن ، فأنا أحمل إليه رسالة هامة وعاجلة ، من (تل أبيب) مباشرة .

بدا الاهتمام على وجه الضخم ، وقال فى سرعة :

ــ سأوقظه .

واندفع يصعد فى درجات السلم إلى الطابق الثانى ، فى حين اتجه الأصلع إلى بار صغير ، يحتل جانبًا من الطابق السفلى ، والتقط منه زجاجة من الخمر ، وكأسًا من البلور ، وصب قليلًا من الخمر فى الكأس ، ثم جرعه دفعة واحدة ، على نحو جعل وجهه يحتقن بالدماء ، فى نفس اللحظة التى ارتفع فيها من خلفه صوت صارم ، يقول :

ــ منذ متى تهوى احتساء الخمر فى الفجر يا (إيزاك) ؟

التفت الأصلع فى حركة حادة إلى مصدر الصوت ، ودفع بصره على رجل نحيل ، يرتدى معطفًا منزليًا ، ويمتلك أنفًا أطول مما ينبغى ، وملامح صارمة ، فسعل الأصلع فى توتر ، وقال :

ــ نادرًا ما أفعل هذا يا (كاهان) ، ولكنه الانفعال .

ظل (كاهان) يتطلع إليه بنظرة حادة ، وهو يهبط السلم ، ثم لم يلبث أن اتخذ مقعدًا وثيرًا ، فى مواجهة (إيزاك) ، الذى قال محاولًا إخفاء ارتباكه :

— كيف استيقظت بهذه السرعة ؟

قال (كاهان) فى صرامة :

— لقد أيقظتنى طرقاتك العنيفة على الباب .

لوّح (إيزاك) بكفه ، وقال :

— لقد أمرونى بضرورة إبلاغك على الفور .

عقد (كاهان) حاجبيه فى غضب ، وقال :

— ولماذا لم يتصلو بى مباشرة ؟

أجابه (إيزاك) فى ضجر :

— يشكّون فى أن هاتفك مراقب .

ثم أضاف فى سرعة ، قبل أن يلقى عليه (كاهان) سؤالًا آخر ، أو يعترض على نقطة ثانية .

— إنهم يحذروننا من أن المصريين قد أرسلوا خلفنا واحدًا من أخطر رجالهم .

تطلّع إليه (كاهان) لحظة فى شك ، ثم سأله فى بطء :

— ولماذا يفعلون هذا ؟.. أقصد المصريين .. لماذا يرسلون أحد أخطر رجالهم ؟

أجابه (إيزاك) فى انفعال :

— لقد تدخلنا كثيرًا فى أعمالهم ، فى الفترة الأخيرة ، ويبدو أنهم وجدوا أن (باريس) لا يمكن أن تتسع لنا معًا ، فقرّروا إبعادنا عنها .

قال (كاهان) فى صرامة :

— إنها لا تتسع للفريقين بالطبع .

ثم ابتسم فى شراسة ، مستطردًا :

— والفريق الأقوى سيبقى فى الساحة .

تلاشت ابتسامته بأسرع مما وُلِدَتْ ، وهو يسأل (إيزاك) فى اهتمام بالغ :

— وما اسم ذلك المصرى ، القادم لتصفيتنا ، والذى يعتبره المصريون واحدًا من أخطر رجالهم ؟

تنهّد (إيزاك) ، وقال :

— هذه هى المشكلة .

هتف (كاهان) فى حدة :

— أيّة مشكلة ؟.. إننا نعلم أنه قادم .. أليس كذلك ؟

أومأ (إيزاك) برأسه إيجابًا ، وقال :

— ليس هذا فحسب .. إننا نعلم أيضًا أنه سيصل إلى (باريس) على طائرة (مصر للطيران) ، التى ستهبط فى مطار (أورلى) ، فى الثامنة .. أى بعد ساعتين فحسب ، ولكننا لا نعرف اسمه .

صاح (كاهان) فى غضب :

— أى عبث هذا ؟ .. إن لنا عميلًا فى جهاز الأمن المصرى .. أليس كذلك ؟

ازدرد (إيزاك) لعابه ، وقال :

— إحم .. الواقع أنه لم يعد لدينا عميل هناك .

هبّ (كاهان) من مقعده ، هاتفًا :

— ماذا تعنى ؟

بدا التوتر أكثر على وجه (إيزاك) ، وهو يقول :

ـ لقد كشف المصريون أمره ، منذ عدة ساعات ، وألقوا القبض عليه ، بعد أن أرسل جزءًا من رسالته الأخيرة ، وقبل أن يكمل إرسال الاسم ، الذى يسافر به رجل المخابرات المصرى .

تراجع (كاهان) كالمصعوق ، وهو يقول :

ـ كشفوا أمره ؟!

تهاوى على مقعده صامتًا ، زائغ البصر لحظات ، ثم لم تلبث ملامحه أن استعادت صرامتها المعهودة ، وهو يرفع عينيه إلى (إيزاك) ، قائلًا فى اهتمام مباغت :

ـ تقول : إنه لم يكمل إرسال الاسم ، وهذا يعنى أنه قد أرسل جزءًا من الاسم ، فما هذا الجزء ؟

تنحنح (إيزاك) فى حرج ، وغمغم :

ـ إنه حرف واحد فى الواقع .

هتف (كاهان) مستنكرًا :

ـ حرف واحد ؟!

ثم سيطر على أعصابه مرة أخرى فى سرعة ، وهو يستطرد :

ـ حسنًا .. حسنًا .. ما هذا الحرف ؟

أجابه (إيزاك) فى سرعة :

ـ حرف الراء .. الاسم الذى ينتحله رجل المخابرات المصرى ، يبدأ بحرف الراء .

ردَّد (كاهان) فى حزم :

حرف الراء .. هذا أفضل ، فلو انتحل اسمًا يبدأ بحرف الميم ، لعجزنا عن تعرّفه ، إذ أن نصف المصريين يحملون أسماء تبدأ بحرف الميم .

ثم اعتدل صائحًا :

ـ (إليعازر) .

برز الضخم فجأة ، كما لو كان يقف عند الباب ، وقال بصوته الغليظ :

ـ فى خدمتك يا سيِّدى .

أشار إليه (كاهان) فى صرامة ، وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ اذهب على الفور إلى مطار (أورلى) ، وانتظر الطائرة القادمة من (القاهرة) ، فى الثامنة ، واحصل على قائمة بأسماء القادمين على متنها ، وارسل رجالك خلف كل مصرى منهم ، يحمل اسمًا يبدأ بحرف الراء .. هل تفهم ؟

أومأ (إليعازر) برأسه إيجابًا ، وقال فى غلظة :

ـ أفهم يا سيِّدى .

وغادر المكان بنفس السرعة ، التى جاء بها ، فى حين التفت (كاهان) إلى (إيزاك) ، وقال فى شراسة عجيبة :

ـ سترى الآن يا رجل .. سترى أن فريقنا هو الذى سيربح اللعبة فى النهاية . وافتر ثغرة عن ابتسامة وحشية ، قبل أن يضيف :

ـ لعبة الجواسيس .

* * *

٢ ــ حرف الراء ..

استرخت (ريم) فى مقعدها الوثير ، داخل طائرة (مصر للطيران) ، التى اقتربت من (باريس) ، والتى هبطت تحت مستوى السحب ، التى ظلت تسبح فوقها طويلًا ، وتنهَّدت فى ارتياح ، وقد أعاد إليها مشهد الأرض ذلك الشعور بالأمان ، الذى يفارقها دائمًا فى كل رحلاتها الطائرة ، كلما أصبح المشهد الوحيد الذى تراه ، من نافذة الطائرة ، هو السحب الممتدَّة إلى ما لا نهاية ، وكادت تسبل جفنيها فى تراخ ، لولا أن تنحنح الجالس إلى جوارها ، وقال فى حرج :

ــ معذرة .. ولكن هل يعنى انخفاضنا عن مستوى السحب ، أننا اقتربنا من (باريس) ؟

التفتت تتطلَّع إلى جارها لأوَّل مرة ، منذ استقلَّت الطائرة ، ولقد بدا لها مرتبكًا ، متوترًا ، فسألته فى هدوء :

ــ أهى أوَّل مرة ؟

قال فى حيرة :

ــ أوَّل مرة ماذا ؟

ابتسمت بسذاجته ، وقالت :

ــ أوَّل مرة تسافر فيها إلى (باريس) .

التقط نفسًا عميقًا ، وقال :

ــ بل أوَّل مرة استقلّ فيها طائرة .

هتفت :

ــ حقًّا !!

ثم لم تلبث أن انتبهت إلى أن هذا أمر طبيعى ، بالنسبة لعدد كبير من المصريين ، الذين لم يرتبطوا أبدًا بأحد عقود العمل الخارجية ، فأسرعت تضيف فى حرج :

ــ لن تلبث أن تعتاد ذلك .

غمغم على نحو يوحى بأن حديثها لم يضايقه :

ــ أتعشَّم ذلك .

ارتفع فى تلك اللحظة صوت مضيفة الطائرة ، تعلن وصول الطائرة إلى مطار (أورلى) ، وتهنئ المسافرين على سلامة الوصول ، طالبة منهم ربط أحزمتهم ، والامتناع عن التدخين ، فأمسك جار (ريم) حزام مقعده ، وحاول أن يربطه فى ارتباك ، فابتسمت (ريم) مشفقة ، وقالت :

ــ اضغط ذلك الطرف ، وادخله فى فجوة الطرف الآخر .

أطاع توجيهاتها فى عصبية ، ثم زفر فى قوة ، وقال :

ــ شكرًا .

تمتمت .

ــ لا عليك .

أغلق عينيه فى قوة ، وكأنما يخشى مواجهة لحظة هبوط الطائرة ، وراحت (ريم) تتأمَّله فى اهتمام ..

كان متوسّط الطول ، يميل إلى البدانة بعض الشىء ، طفولى الملامح ، أكرت الشعر ، يوحى مظهره العام بانتمائه إلى واحدة من الطبقات الكادحة ، على الرغم من الحلة الفاخرة التى يرتديها ، ورباط العنق

الحريرى الأنيق ، الذى فشل فى عقده على نحو مناسب ، فبدا أشبه بحبل يحيط بعنقه ، ويتدلّى من عقدة كبيرة ..

وامتلأ نفسها بالخجل بغتة ، لأنه فتح عينيه ، وابتسم لها ابتسامة هادئة بسيطة ، عندما وجدها تتأمّله ، فأسرعت تقول :

ـــ ألا زلت تشعر بالخوف ؟

أجابها مبتسمًا :

ـــ إلى حدّ ما :

ثم سألها فى اهتمام :

ـــ هل سبق لك السفر إلى (باريس) ؟

أجابته :

ـــ نعم .. فأنا أعمل فى شركة (مصرية ـــ فرنسية) ، وعملى يحتم السفر إلى (باريس) ثلاث مرات فى العام على الأقل .

اعتدل وهو يسألها فى لهفة :

ـــ أيعنى هذا أنك تتحدّثين الفرنسية ؟

ابتسمت وهو تقول :

ـــ هذا صحيح .

تهلّلت أساريره ، وقال :

ـــ يا لحظى الحسن .. يمكنك معاونتى فى الدائرة الجمركية إذن :

ضحكت قائلة :

ـــ نعم .. يمكننى هذا .

تنهّد فى ارتياح ، وعاد يسترخى فى مقعده ، قائلًا :

ـــ كانت أمى على حق .

قالت فى دهشة :

ـــ أمك .

أجابها فى حماس :

ـــ نعم .. لقد أكّدت لى أن الله (سبحانه وتعالى) سيضع أولاد الحلال فى طريقى ، ما دمت أطيعها وأحسن معاملتها .

ابتسمت قائلة :

ـــ لا ريب أنها على حق .

ثم حلّت حزام مقعدها ، وأضافت :

ـــ هيا .. لقد هبطت الطائرة .

هتف فى دهشة :

ـــ حقًا .. يا إلٰهى !.. لم أشعر بهبوطها .. هذا الطيار رائع بحق .

حاول حلّ حزام مِقعده فى عصبية ، فانحنت هى تحلّه ، وهى تقوم :

ـــ ينبغى أن تعتاد هذا العمل البسيط ، لو كنت تنوى السفر بالطائرة مرة أخرى .

نهض يحمل حقيبته الصغيرة ، وهو يقول :

ـــ هذا يتوقّف على هذه الرحلة .

سألته فى فضول ، وهما يهبطان فى سلم الطائرة :

ـــ ما عملك بالضبط ؟

أجابها فى بساطة :

ـــ تاجر أدوات تجميل .. لست رجل أعمال ثرى ، كما قد يتبادر

إلى ذهنك ، بل مجرَّد تاجر صغير ، ورث متجرًا فى (الموسكى) ، ولدى طموح كبير ، فى تحويله إلى شركة كبيرة لأدوات التجميل ، وهذا الطموح هو الذى أتى بى إلى (باريس) .

سألته فى دهشة :

ـ وهل تنوى شراء أدوات تجميل من (باريس) ؟

تهلَّلت أساريره بابتسامة طفولية ، وهو يقول :

ـ أليست فكرة رائعة ؟

هتفت :

ـ بل فكرة حمقاء .

توقَّف مبهوتًا ، على نحو أصابها بالحرج ، فقالت مرتبكة :

ـ لم أقصد هذا الواقع ، ولكن ..

سألها فى اهتمام قلق :

ـ ولكن لماذا تقولين إنها فكرة حمقاء ؟

ارتبكت أكثر ، وهى تقول :

ـ لم أقصد المعنى الحرفى ، وإنما ..

قاطعها مرة أخرى فى لهفة .

ـ أعلم .. أعلم .. المهم هو لماذا بدت لك الفكرة غير مناسبة ؟

أجابته فى خجل :

ـ لأننى لا أبتاع أدوات التجميل الخاصة بى من هنا ، فهى غالية الثمن فى متاجر (باريس) .. أغلى بكثير من أسعارها فى مصر .

بدت خيبة الأمل على وجهه ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!

شعرت بالأسف ؛ لأنها حطَّمت أحلامه وطموحه على هذا النحو ، وحاولت التخفيف من وقع الصدمة على نفسه ، فقالت :

ـ هذا رأيى كمستهلكة ، ولكن ربما كانت هناك قواعد أخرى ، بالنسبة للتعاملات التجارية ، فقد سمعت من بعض أقاربى أنهم يمنحون تسهيلات جيِّدة للمستوردين ، ولتصدير المنتجات الفرنسية ، و ...

بدت لها محاولتها سخيفة ، كما بدا كما لو أن خيبة أمله تمنعه من الاستماع إليها ، فقالت فى أسف :

ـ معذرة .. لم أقصد تحطيم طموحك على هذا النحو .

تمتم فى خفوت :

ـ لا عليك .

لاذ بالصمت التام بعدها ، مما زاد من شعورها بالندم ، حتى بلغا الدائرة الجمركية ، فوضع حقيبته الصغيرة أمام مفتش الجمارك الفرنسى ، الذى سأله بالفرنسية عما يحمله ، ولكنه راح يحدِّق فى وجهه فى حيرة ، محاولًا فهم ما يقول المفتش ، وهنا وجدت (ريم) أنها فرصتها لإصلاح الأمور ، وهمَّت بترجمة حديث المفتش ، لولا أن ارتفع من خلفها صوت هادئ ، يقول بالعربية :

ـ إنه يسألك عمَّا لديك .

التفت إليه التاجر فى دهشة ، ثم هتف :

ـ ـ آه .. شكرًا لك .. إننى أحاول فهم ما يقول منذ فترة ..

والتفت (ريم) بدورها إلى صاحب الصوت ، ثم خفق قلبها فى قوَّة ..



كانت أمام أكثر الرجال وسامة فى حياتها كلها ..

طويل القامة نسبيًا ، وسيم الملامح ، أنيق الملبس ، ناعم الشعر ، أسوده ..

وكان يبدو كنجم من نجوم السينما الفرنسية ، بمعطف المطر الأنيف ، الذى يبدو من خلفه رباط العنق الداكن ، وحقيبته السوداء ، ذات الإطار المعدنى المذهّب ..

وفى انبهار ، راحت تتطلّع إليه ، والتاجر يستطرد مرتبكًا :

ـ هل يمكنك أن تخبره أننى لا أحمل شيئًا ، وأن هذه الحقيبة الصغيرة هى كل ما أملك ؟

ترجم الوسيم هذا الحديث لمفتشى الجمارك ، الذى أصرّ على تفتيش الحقيبة ، فقال التاجر فى انفعال :

ـ فليكن .. إننى لا أخفى شيئًا :

وفتح أقفال الحقيبة فى عصبية ، ولم يكد يرفعها ، حتى سقطت منه الحقيبة أرضًا ، وتناثرت محتوياتها القليلة أمام الجميع ، وارتبك التاجر أكثر ، فراح يجمع فرشاة أسنانه ، وآلة الحلاقة ، وملابسه القليلة فى سرعة ، فى حين ابتسم الوسيم ، واتجه بحديثه إلى (ريم) ، قائلًا :

ـ يبدو أنها أولى رحلاته خارج البلاد .

كان صوته عذبًا قويًا ، زاد من وسامته ورجولته ، فأجابته مبهورة :

ـ هذا صحيح .

مدّ يده يصافحها ، وهو يقول :

ـ اسمى (رءوف) .. (رءوف ذهنى) .. مصرى .

صافحته وهى تقول :

ـــ وأنا (ريم عبد القادر) .. مصرية أيضًا .

سألها وهو يتأمّل ملامحها الفاتنة :

ـــ أهى رحلة عمل ، أم زيارة سياحية ؟

ابتسمت قائلة :

ـــ بل رحلة عمل .

ابتسم بدوره ، قائلًا :

ـــ كان ينبغى أن أتوقّع ذلك ، فليس من الممتع زيارة (باريس) فى الشتاء .

سطع فجأة ضوء مصباح تصوير على وجهها ، فالتفتا فى حركة واحدة إلى مصدره ، ووقعت عيونهما على شاب فى أوائل الثلاثينات ، يبتسم فى مرح ، قائلًا :

ـــ معذرة .. لم أستطع مقاومة هذاالمشهد النادر .. الوسامة والفتنة جنبًا إلى جنب .

قال (رءوف) فى خشونة .

ـــ ليس من حقك أن تلتقط صورتنا ، دون استئذاننا .

انحنى الشاب على نحو مسرحى ، وهو يقول :

ـــ إننى أعتذر .

ثم اعتدل مستطردًا بنفس المرح السابق .

ـــ ولكننى لست آسفًا على التقاط مثل هذه الصورة .

همّ (رءوف) بالاعتراض مرة أخرى ، ولكن الشاب أسرع يخرج من جيبه بطاقة أنيقة ، قدّمها لهما ، قائلًا :

ـــ إننى مصرى مثلكما ، وهذا يمنحنى بعض الحق فى الغربة .. وبالمناسبة ، اسمى هو (رفعت سعيد) ، وأنا أفضل مصوّر فوتوجرافى ، فى الشرق الأوسط كله .. أو هكذا أظنّ نفسى على الأقل .

لم يبدّد هذا من غضب (رءوف) وخشيت (ريم) أن يتحوّل الأمر إلى مشاجرة ، ولكن صوت التاجر ارتفع من خلفها هاتفًا :

ـــ يا للمصادفة !.. كلنا إذن نحمل حرف الراء ، فى بداية أسمائنا .

التفتت إليه (ريم) فى دهشة ، قائلة :

ـــ كلنا ؟!

ابتسم مشيرًا إلى صدره ، وهو يقول :

ـــ نعم ، فاسمى (رشدى) .. (رشدى كامل) .

ران الصمت عليهم لحظات ، وكل منهم يتطلّع إلى وجوه الآخرين ، ثم قطعت (ريم) حبل الصمت ، وهو تقول :

ـــ مصادفة طريفة بالفعل .

ولكن صوتها لم يكن يحمل شيئًا من المرح ، بل كان جادًّا ، حاسمًا ، و ... وغامضًا .

* * *

٣ ــ البحث ..

انعقد حاجبا (كاهان) فى شدة ، وهو يطالع الورقة ، التى قدّمها إليه (إليعازر) ، ثم قال فى اهتمام بالغ :

ــ أهم ثلاثة فقط يحملون أسماء تبدأ بحرف الراء ؟

أجابه (إليعازر) فى اقتضاب فظ :

ــ نعم يا سيِّدى .

سأله (كاهان) بصرامته المعهودة :

ــ وهل أرسلت رجالك خلفهم ؟

أومأ (إليعازر) برأسه إيجابًا ، فعاد (كاهان) يسأله :

ــ وماذا فعلوا ، عند خروجهم من المطار ؟

أجابه (إليعازر) :

ــ رجل الأعمال (رءوف ذهنى) ذهب إلى فندق (ريتز) ، ويقيم هناك فى الغرفة رقم (٦٠٦) ، والمصوِّر (رفعت سعيد) استقلّ سيارة من سيارات الأجرة ، إلى أحد الأحياء التجارية ، وصعد إلى شقة يملك مفتاحها ، وبسؤال مالكتها ، وجدنا أنه يستأجر تلك الشقة على نحو دائم ، على الرغم من أنه لا يأتى إليها إلا مرة أو مرتين فى العام ، أما تاجر أدوات التجميل (رشدى كامل) ، فقد عاونته راكبة مصرية على العثور على فندق رخيص ، ثم تركته هناك وانصرفت ..

عاد (كاهان) يتطلَّع إلى الورقة باهتمام أشدّ ، ثم قال فى حزم :

ــ استمرّ فى مراقبتهم يا (إليعازر) ، وأبلغنى بأى شىء يثير شكوكك فى تصرفاتهم ، مهما بدا لك تافهًا .. هل تفهم ؟

أجابه (إليعازر) بصوته الغليظ :

ــ فهمت يا سيِّدى .

ثم انصرف بسرعة كعادته ، والتفت (كاهان) إلى إيزاك ، الذى قال فى قلق :

ــ تُرى مَنْ مِنْ هؤلاء الثلاثة بغيتنا ؟

نهض (كاهان) من مقعده ، وهو يقول :

ــ لا تتعجَّل الأمور .

ثم صبَّ لنفسه كأسًا من الخمر ، مستطردًا بابتسامة مقيتة :

ــ إننا نحكم قبضتنا على الأمر الآن ، ولن نلبث أن نكشف القناع عن وجه رجل المخابرات المصرى هذا .

سأله (إيزاك) :

ــ وماذا لو عجزنا عن ذلك ؟

اتسعت ابتسامة (كاهان) ، وبدت أشبه بابتسامة نمر مفترس ، وهو يقول :

ــ قلت لك اطمئن ، ففى هذه الحالة لدى خطة بديلة :

ثم برزت أنيابه ، وهو يستطرد :

ــ خطة أكثر جسمًا ..

* * *

استيقظت (ريم) من نومها فى الواحدة ظهرًا ، وتثاءبت فى تكاسل ، وهى تنظر إلى ساعتها ، ثم تذكَّرت تلك المهمة العسيرة ، التى كلّفها إياها

رؤساؤها ، فنفضت عنها كل الكسل وبقايا النعاس ، ونهضت من فراشها تغتسل ، ثم ارتدت ثوبًا أنيقًا ، جعلها تبدو أشبه بممثلة سينمائية معروفة ، مما جعلها تشعر بالأسف ، وهى ترتدى فوقه معطفًا للمطر ، فتنهَّدت قائلة لنفسها :

ــ لا بأس .. فلننه المهمة أوّلًا ، ثم نسعى خلف الأناقة والجمال فيما بعد .

غادرت فندقها ، الذى يحتلّ ناصية كبيرة ، من نواصى (الشانزليزيه) ، وعبرت الطريق فى خطوات سريعة ، حتى بلغت مقهى يحمل لافتة عربية ، تشير إلى جنسية مالكه ، وبحثت بين موائد المقهى عن شىء ما بعينيها ، ثم مطّت شفتيها فى أسف ، فارتفع من خلفها صوت مصرى يقول :

ــ أتبحثين عن شخص ما ؟

التفتت إلى صاحب الصوت ، وهتفت بدهشة :

ــ الأستاذ (رءوف)؟!.. يا لها من مصادفة !!

ابتسم (رءوف) ، وهو يصافحها قائلًا :

ــ يبدو أنه يوم المصادفات الطريفة .

تمتمت فى خفوت :

ــ هذا صحيح .

ثم عادت تتلفّت حولها ، فكرّر سؤاله .

ــ أتبحثين عن شخص ما ؟

أجابته فى هدوء :

ــ نعم .. إننى أنتظر شخصًا ما .

سألها فى حذر :

ــ أحبيب هو ؟

ضحكت قائلة :

ــ بل زميل .. زميل عمل .

سألها فى شك :

ــ وهل اعتدت لقاء زملاء العمل فى المقاهى ؟

بدا الضيق على وجهها ، وهى تقول :

ــ هل تقترح مكانًا آخر ؟

أجابها فى سرعة :

ــ مكان العمل مثلًا .

لم تجب على الفور ، وإنما صمتت بضع لحظات ، قبل أن تجيب :

ــ هناك أسباب تمنع هذا .

تأمّلها لحظة أخرى فى صمت ، ثم أجاب :

ــ بالطبع .. معذرتى لتدخلى فى شئونك .

استعادت ابتسامتها فى سرعة ، وهى تقول :

ــ لا عليك .

لم تكد تنطق عبارتها ، حتى سطع مصباح التصوير فى وجهها ، كما حدث فى الصباح ، فالتفتت إلى مصدره ، وهتفت فى حدة :

ــ أهو أنت مرة أخرى ؟

وانعقد حاجبا (رءوف) فى غضب ، وهو يتطلّع إلى (رفعت) ، الذى هتف فى مرح :

ــ إننى سعيد الحظ حتمًا ، حتى ألتقى بكما معًا ، مرتين فى يوم واحد .

قالت (ريم) فى ضيق :

ــ إنها مجرَّد مصادفة .

أما (رءوف) ، فقال فى حدة :

ــ حذار أن تلتقط لى صورة أخرى ، دون استئذان ، وإلا حطمت رأسك .

أمسك (رفعت) رأسه فى تهالك مصطنع ، وهو يهتف :

ــ يا إلهى !!.. أتريد تحطيم رأسى المسكين ؟

صاح به (رءوف) فى غضب :

ــ كفى وإلا ..

أسرعت (ريم) تتدخَّل ، خشية اشتعال الموقف ، وسألت (رفعت) :

ــ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

هزَّ (رفعت) كتفيه ، وقال :

ــ مجرَّد مصادفة كما تقولين ، فلقد كنت أبحث عن أماكن تجمّع العرب ، فى قلب (باريس) ، وأنت تعلمين أن مقاهى (الشانزليزيه) هى أفضل مكان لما أبحث عنه .

رمقه (رءوف) بنظرة شك ، وهو يقول :

ــ فقط ؟

تطلَّع إليه (رفعت) فى برود ، وهو يجيب :

ــ ألديك سبب أفضل ؟



شعرت (ريم) بالضجر ، من هذه المشاحنات الطفولية ، التى تنشب بين هؤلاء الكبار ، وتنهّدت فى ارتياح ، عندما لمحت زميلها يوقف سيارته أمام المقهى ، وهتفت :

و ذا زميلى .. معذرة .

تابعها (رءوف) و (رفعت) ببصرهما ، وهى تبتعد ، وانتقل نظرهما فى تلقائية إلى ذلك الشاب الوسيم ، الذى صافحه فى حرارة ، قبل أن يتخذا مائدة جانبية من موائد المقهى ، وينهمكا فى حديث مباشر ، ثم هزّ (رفعت) رأسه ، قائلًا :

إننى أحسده فى الواقع !

رمقه (رءوف) بنظرة نارية ، قبل أن يقول :

ـــ وأنا أحذّرك من التدخّل فى أمورى مرة أخرى .

ابتسم (رفعت) فى استهتار ، وقال :

ـــ ومن يرغب فى ذلك ؟

ثم ابتعد فى لا مبالاة ، وسرعان ما اختفى وسط زحام (الشانزليزيه) ، فعقد (رءوف) حاجبيه ، وغمغم :

ـــ أهى مصادفة حقًّا أيها المصوّر ؟

ثم اتجه إلى هاتف عمومى على بعد خطوات ، وأدار رقمًا ما ، وما أن تلقّى صوت محدّثه ، حتى قال بصوت خافت :

ـــ مساء الخير يا (عونى) .. نعم .. إنه أنا .. اسمعنى جيّدًا .. هناك شاب وصل معى على نفس الطائرة ، ويدعى (رفعت سعيد) .. نعم

أخشى أن يفسد العملية كلها .. ابحث عنه ، وحاول إزاحته من الطريق بأى ثمن .

أنهى المحادثة عند هذا القدر ، ثم التفت لينصرف ، لولا أن وقع بصره على ذلك الشاب ، الذى التقت به (ريم) .

وانعقد حاجباه فى دهشة ..

لقد كان هناك شىء يبرز داخل سترة الشاب نصف المفتوحة ..

وكان هذا الشىء قبضة ..

قبضة مسدّس كبير ..

* * *

ارتشف (كاهان) رشفة من كأسه فى بطء ، وهو يسأل (إليعازر) فى اهتمام :

ـــ وماذا فعل ذلك المصوّر ، بعد انصرافه من المقهى ؟

أجابه (إليعازر) :

ـــ لقد اتجه مباشرة إلى (قوس النصر) ، واستقلّ سيارة (ستروين) زرقاء ، كانت تنتظره هناك ، وانطلق رجالنا خلفها ، ولكنها راوغتهم فى مهارة ، ونجحت فى الإفلات منهم ، فى قلب المدينة .

عقد (كاهان) حاجبيه فى ضيق ، وهو يقول :

ـــ وكيف تنجح فى ذلك ؟

أجابه (إيزاك) فى توتر :

ـــ لأنها سيارة محترفين .

التفت إليه (كاهان) ، قائلًا فى عصبية :

ـــ ماذا تقصد بهذا ؟

أجابه فى حدة :

ـــ أتريد دليلًا أقوى من هذا يا رجل ؟.. إننا نبحث عن محترف ، بين ثلاثة رجال ، ثم نلتقى بأحدهم ، وهو يأتى أفعالًا غامضة ، وعندما نتبعه يستقل سيارة ، تنجح فى الفرار منا بمهارة .. ألا يعنى لك هذا أنه الرجل الذى نبحث عنه ؟

صمت (كاهان) لحظات مفكرًا ، ثم قال :

ـــ أظنك على حق .

ثم التفت إلى (إليعازر) ، وقال فى حزم :

ـــ فليكن .. إننا لن نخسر شيئًا .. مر رجالك بقتل ذلك المصوِّر .. فمن يدرى ؟

وهزَّ كتفيه ، مستطردًا :

ـــ ربَّما ..

* * *

ابتسم (رفعت) فى هدوء ، وهو يصافح ذلك الرجل ، الذى التقى به فى شقة صغيرة ، على مشارف العاصمة الفرنسيَّة ، وقال الرجل فى جدية واهتمام :

ـــ كيف حال مهمتك ؟

أجابه (رفعت) ، وهو يضع آلة التصوير إلى جواره :

ـــ كل شىء على ما يرام ، وأظننى سأبلغ الهدف قريبًا .

مال الرجل نحوه ، وهو يقول :

ـــ احترس جيدًا يا رجل ، فمهمتك لن تكون سهلة أبدًا

أومأ (رفعت) برأسه ، قائلًا :

ـــ أعلم ذلك .

ثم أضاف فى لهجة تشفّ عن إصراره :

ـــ ولكننى سأتمّها بإذن الله .

ابتسم الرجل فى ارتياح ، وقال :

ـــ وفّقك الله يا صديقى .

ثم نهضا يتصافحان ، وقال (رفعت) :

ـــ أظن أنه من الأفضل ألا نلتقى مرة أخرى ، حتى أتمّ مهمتى .

أجابه الرجل :

ـــ هذا صحيح ، ولكن أخبرنى .. أين يمكننا أن نجدك ؟

هزَّ (رفعت) كتفية ، وقال :

ـــ فى (الشانزليزيه) .. سأعود إليه الآن ، وأتواجد فيه كلما وجدت وقتًا لذلك ، ففكرة التحقيق الصحفى عن التجمعات العربية فى مقاهيه فكرة جيِّدة ، وتمثل تغطية مناسبة للمهمة الأساسية .

ربَّت الرجل على كتفه ، قائلًا :

ـــ لا بأس يا (رفعت) ؛ ولكن احترس .

ابتسم (رفعت) ، قائلًا :

ـــ سأفعل يا سيِّدى .. اطمئن .

وانصرف عائدًا إلى (الشانزليزيه) ..

حيث ينتظره القدر ..

* * *

٤ ـــ القاتل ..

ارتشف الشاب الجالس مع (ريم) رشفة من قدح القهوة ، وهو يتطلّع إلى هذه الأخيرة ، قائلًا :

ــ أعلم أن مهمتك بالغة الحساسية والخطورة ، ولكنك أصلح من يقوم بها .

تنهّدت قائلة :

ــ ولكننى أشعر بخوف شديد فى أعماق .

وافقها بإيماءه من رأسه ، وقال :

ــ هذا أمر طبيعى ، فى مثل هذه الظروف ، فالمهمة ليست بالبسيطة .

ثم مال نحوها ، مستطردًا :

ــ ولكننا سنقف إلى جوارك فى كل خطوة .

لوّحت بكفها ، قائلة :

ــ ماذا تعنى بأنكم ستقفون إلى جوارى ؟.. أنت تعلم مثلى أن الخطة تقتضى قيامى بالمهمة وحدى .

أجابها فى هدوء :

ــ هذا صحيح ، لأنك آخر شخص يمكن أن تحيط به الشبهات ، ولكننا نراقبك خفية ، وسنتدخّل إذا ما تأزّمت الأمور .

سألته فى قلق :

ــ ولكنك قلت من قبل إنهم يعرفونكم جميعًا .

ابتسم قائلًا :

ــ ذلك الذى يراقبك ليس أحدنا .

سألته فى فضول :

ــ من هو إذن ؟

اتسعت ابتسامته ، وهو يجيب :

ــ ستكشفين هذا فى الوقت المناسب .

عقدت حاجبيها فى ضيق ، وهى تقول :

ــ إننى أكره هذا الغموض .

هزّ كتفيه ، وقال :

ــ ربّما ، ولكن هذا أفضل لحمايتك .

قالت فى غضب :

ــ لا بأس ، ما دمتم ترون هذا .

تلاشى غضبها فجأة ، وهى تتطلّع إلى نقطة بعيدة ، فسألها الشاب :

ــ ماذا حدث ؟

لوّحت بكفها ، قائلة :

ــ إنه يوم المصادفات بالفعل .. هل ترى ذلك الذى يحاول عبثًا التحدّث مع شرطى المرور .. إنه راكب جاء معى على نفس الطائرة .

ألقى نظرة سريعة على النقطة التى تشير إليها ، وابتسم ابتسامة باهتة ، عندما وقع بصره على (رشدى) ، الذى يقف أمام شرطى المرور ، ملوّحًا بكفيه فى سرعة ، وكأنما يحاول استخدام لغة الإشارة مع الشرطى ، الذى بدا بدوره ضجرًا ملولًا ، يحاول إقناع (رشدى) بتركه .. ونهض الشاب ، قائلًا :

— سأنصرف الآن ، ولنلتق مرة أخرى فى نفس الموعد ، بعد غد .

غمغمت :

— فليكن .

ثم نهضت تعبر الطريق ، حتى بلغت موضع (رشدى) وشرطى المرور ، وقالت :

— ألم تتعلّم الفرنسية بعد ؟

التفت إليها (رشدى) فى دهشة ، ثم تهلّلت أساريره ، وهو يهتف :

— (ريم) ؟!.. يا لحظى الحسن !.. أرجوك أخبرى هذا الشرطى أننى أبحث عن واحدة من سيارات الأجرة .

ضحكت وهى تسأله :

— وما شأن الشرطى بهذا ؟

سألها فى دهشة :

— ما شأنه ؟!.. أليس شرطى مرور ؟

ضحكت مرة أخرى ، واعتذرت للشرطى بالفرنسية ، فلوّح لها الشرطى بذراعيه ، ورجاها أن تصحب (رشدى) معها بعيدًا ، فأمسكت ذراع (رشدى) ، وقالت :

— تعال .. سأدعوك إلى قدح من القهوة العربية .

هتف فى سعادة :

— حقًّا ؟!

لم تتمالك نفسها من الابتسامة ، مع أسلوبه التلقائى البسيط ، وسألته فى مودّة :

— هل التقيت بتجار مواد التجميل ؟

مط شفتيه فى أسف ، قائلًا :

— نعم ، ولكن يبدو أنك على حق .

سألته فى اهتمام :

— أهى مشكلة أسعار ؟

أجابها فى تعاسة :

— بل مشكلة كمية .. إنهم مستعدّون لمنحى كل التسهيلات اللازمة ، بشرط أن يكون حجم تعاملى السنوى معهم مليون فرنك على الأقل ، وهذا يفوق رأسمالى كثيرًا جدًّا .

غمغمت متعاطفة :

— يا للأسف !.. وماذا ستفعل الآن ؟

أجابها فى بساطة :

— سأبحث عن شىء آخر ، يصلح للبيع فى (مصر) .

ضحكت قائلة :

— ألا تستسلم أبدًا ؟

قال فى بساطة :

— ولماذا أفعل ؟

راودها بعض الإعجاب تجاهه ، ووجدت نفسها تقول :

— كم تروق لى شخصيتك يا (رشدى) ؟

هتف فى سعادة :

— حقًّا ؟

أطلقت ضحكة عذبة ، وقالت :

ــ هل لاحظت أنك تردِّد هذه الكلمة كثيرًا جدًّا ؟

هتف دون وعى :

ــ حقًّا !

ثم اشتركا فى ضحكة طويلة ، قطعها صوت (رفعت) ، وهو يقول :

ــ أهى نكتة طريفة إلى هذا الحد ؟

التفتا إليه فى حركة واحدة وابتسمت (ريم) وهى تقول :

ــ أهلًا يا (رفعت) .. لقد تصوَّرت أنك قد انصرفت مع (رءوف) .

أجابها فى مرح :

ــ لا .. لقد انهمكت فى تصوير بعض المقاهى الأخرى فحسب .

أشارت إلى (رشدى) قائلة :

ــ هل تذكر ..

قاطعها بسرعة :

ــ (رشدى كامل) .. نعم .. أذكره .

ابتسم (رشدى) وهو يقول :

ــ أنا أيضًا أذكرك ... أنت المصوِّر الصحفى .. أليس كذلك ؟

فى نفس اللحظة التى دار فيها بينهم هذا الحديث ، كان هناك رجل نحيل ، يجلس فى إحدى الشرفات المطلَّة على (الشانزليزيه) ، ويحمل بيده جهاز اتصال لاسلكى ، ومنظارًا مقرِّبًا ، ولم يكد يلمح (رفعت) ، حتى ضغط زر الاتصال بالجهاز ، وقال بصوت خشن أجش :

ــ لقد عاد المصوِّر .

أتاه الجواب مقتضبًا ، صارمًا ، حازمًا :

ــ اقتله .

ابتسم النحيل فى جذل ، وقال :

ــ سأفعل .

ثم وضع جهاز الاتصال والمنظار على مائدة قريبة ، والتقط بندقية ذات منظار ، رفعها إلى كتفه ، وألصق عينه بمنظارها ، وهو يقول :

ــ إنه آخر أيامك فى هذه الحياة أيها المصرى .

ولم تكد صورة (رفعت) تتوسط منظاره ، حتى أضاف :

ــ الوداع .

وضغط الزناد ..

* * *



٥ ــ الشك ..

أشار (رشدى) إلى آلة التصوير ، التى يعلّقها (رفعت) على كتفه ، وبدا شديد الاهتمام ، وهو يسأله :

ــ قل لى يا سيِّد (رفعت) : هل تعرف الكثير ، عن آلات التصوير هذه ؟

ابتسم (رفعت) ، وهو يقول :

ــ بالطبع .. إنه عملى .

مدّ (رشدى) يده نحو آلة التصوير بحركة سريعة ، وهو يقول :

ــ هل يمكنك أن تعلّمنى ما تعرفه إذن ، أو ...

كانت حركته أسرع مما ينبغى ، فاندفع نصفه العلوى إلى الأمام ، قبل أن تخطو قدمه خطوة واحدة ، مما أفقده توازنه ، فسقط مرتطمًا بـ(رفعت) ، وهو يهتف :

ــ آه .. معذرة ..

ولكنه جذب (رفعت) معه فى سقطته ، و ...

وانطلقت الرصاصة القاتلة ..

وصرخ قاتل (الموساد) فى غضب :

ــ يا للحظ السئ .

قالها ؛ لأن تلك السقطة المفاجئة أطاشت رصاصته ، وجعلتها تتجاوز (رفعت) ، وتصيب أحد الأقداح فوق المائدة المجاورة ..

وتفجّر القدح كالقنبلة ، وتناثرت محتوياته على وجوه وأجساد المحيطين

به ، فأدارت (ريم) رأسها فى سرعة إلى مصدر الرصاصة ، واتسعت عيناها فى شدة ، عندما وقع بصرها على القاتل الممسك ببندقيته ، وهتفت :

ــ يا إلٰهى !

أما (رفعت) ، فقد أدرك الأمر منذ النظرة الأولى ، فهبَّ واقفًا ، واندفع نحو (ريم) ، التى هتفت :

ــ إنها .. إنها ..

قاطعها وهو يجذبها إلى داخل المقهى :.

ــ محاولة قتل .. نعم .. هذا واضح .

أدارت عينيها فى سرعة إلى (رشدى) ، الذى يحاول النهوض فى ارتباك ، وصاحت :

ــ (رشدى) .. إنه هناك .

أجابها فى حزم :

ــ اطمئنى .. إنهم لا يقصدونه .

لم يقنعها قوله ، وظلّت تتطلّع فى قلق إلى (رشدى) ، الذى نجح فى الوقوف ، واندفع بدوره داخل المقهى ، هاتفًا :

ــ ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث ؟

ربّت (رفعت) على كتفه مهدِّئًا ، وهو يقول :

ــ إننى أدين لك بحياتى يا رجل ، فلولا عثرتك هذه ، لفجَّرت هذه الرصاصة رأسى ، بدلًا من ذلك القدح ، وهذا ما يؤكده مسارها .

حدَّق (رشدى) فى وجهه بذهول ، وهو يردِّد :

ــ رأسك ؟!

ثم هتف فى ذعر :

ــ ماذا يحدث هنا ؟

كان الهرج يسود المقهى ، من جراء تلك الرصاصة المفاجئة ، فقال (رفعت) :

ــ لا عليك يا رجل .. لا تحاول فهم كل ما يدور حولك .. إنك هنا فى (باريس) ، ولست فى (القاهرة) .

ثم اندفع نحو بوَّابة المقهى ، مستطردًا فى حزم :

ــ وأظن هذا يحتم ضرورة العمل بسرعة أكبر .

هتفت به (ريم) :

ــ احترس ، قد يكون ذلك القاتل منتظرًا ، أو ..

قاطعها ملوِّحًا بيده :

ــ لا .. لا أعتقد هذا .. إنه لن ينتحر لقتلى .

اختفى بسرعة بين المارة ، فهتف (رشدى) :

ــ أخبرينى بالله عليك ، ماذا يحدث هنا ؟

تطلّعت إلى ملامحه الطفولية المذعورة ، ووجدت نفسها تبتسم فى حنان ، على الرغم من الموقف ، وتقول :

ــ اطمئن يا (رشدى) .. لن يصيبك أى ضرر .

لوَّح بذراعه فى يأس ، وهو يقول :

ــ لن يصيبنى أى ضرر ؟!.. كيف تفسرين كل ما يحدث إذن ؟.. لقد فشلت فى عقد صفقة أدوات التجميل ، التى جئت خصيصًا من أجلها ،

ولم أكد أفكّر فى عقد صفقة أدوات تصوير ، حتى انطلقت رصاصة قاتلة نحونا ، فماذا تريدين أسوأ من هذا ؟

ابتسمت قائلة :

ــ أن تصيبك الرصاصة .. هذا هو أسوأ ما يمكن أن يحدث .

تطلّع إلى وجهها فى سعادة ، هاتفًا :

ــ حقًا ؟!.. هل يهمك أمرى إلى هذا الحد ؟

تضرّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تشيح بوجهها ، قائلة :

ــ إننا غريبان هنا .. أليس كذلك ؟

أجابها فى سرعة :

ــ بلى .

ثم أضاف فى خفوت :

ــ ولكننى سأجلس فى هذا المقهى كل ليلة ، وسيسعدنى كثيرًا أن ألتقى بك ، ولو لحظات .

أدهشتها كلماته ، ولكنها أصابت جزءًا من أعماقها فى الوقت نفسه ، وهو يرفع صوته مستطردًا :

ــ معذرة .. ينبغى أن أنصرف الآن ، فسأحاول عقد صفقة أقمشة .. إلى اللقاء .

تابعته ببصرها وهو ينصرف بخطوات سريعة ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية رقيقة ، وهى تتساءل فى أعماق نفسها عن سر إعجابها به ..

أهى بساطته المتناهية ؟..

أم هى طيبته الواضحة ؟..

واعترفت لنفسها بأنها تميل إليه ، وتجد السعادة فى لقائه ، ثم لم يلبث ذهنها أن أعاد إليها ذكرى مهمتها المعقّدة ، وتذكّرت محاولة القتل ، فانعقد حاجباها فى صرامة ، وهى تقول :

ــ دعنا من العواطف الآن ، ولنعد إلى العمل .

واتجهت إلى الهاتف الداخلى للمقهى ، وضغطت أرقامه فى حسم .. وعادت تواصل مهمتها ..

* * *

دقّ (كاهان) سطح مكتبه بقبضته فى عنف وغضب ، وهو يهتف فى ثورة :

ــ فشلت ؟!.. ماذا أصابكم ؟.. هل صرتم مجرّد هواة ؟.. كيف تفشل فى قتل رجل واحد ؟

عقد القاتل حاجبيه فى ضيق ، وهو يجيب فى توتر :

ــ إنها أوّل مرة يحدث فيها هذا يا مستر (كاهان) .. إننى لم أفشل فى أية مهمة من قبل ، ورصاصاتى لم تخطئ رأسًا قط ، ولكن ذلك الممتلئ تعثر فجأة ، و ...

عاد (كاهان) يضرب سطح مكتبه بقبضته ، صارخًا :

ــ لا أريد أية أعذار .. أريد رجل المخابرات المصرى هذا بأى ثمن .

ارتشف (إيزاك) الرشفة الأخيرة من كأسه ، قبل أن يقول فى عصبية :

ــ هذا لو أن ذلك المصوِّر هو من نبحث عنه .

التفت إليه (كاهان) فى حركة حادة ، وهو يقول :

أشار (إيزاك) بطرف كأسه إلى (إليعازر) ، قائلًا :

ــ أخبره ما لديك .

ــ اخبره ما لديك .

أدار (كاهان) عينيه إلى (إليعازر) فى صرامة ، فأسرع هذا الأخير يقول :

ــ لقد تبع أحد رجالنا (رءوف ذهنى) ، بعد انصرافه من الملهى ، وعلى الرغم من أن رجلنا محترف ، إلا أن (رءوف) هذا قد كشف أمر مطاردته له ، فراوغه فى مهارة مدهشة ، ونجح فى الإفلات من المراقبة ، وسط شوارع (باريس) ، وعلى الرغم من هذا ، فهو لم يعد إلى فندقه بعد .

عقد كاهان حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :

ــ وما الذى يعنيه هذا ؟

صبَّ (إيزاك) لنفسه كأسًا أخرى ، وهو يقول :

ــ يعنى بكل بساطة أن (رءوف) هذا ليس مجرَّد رجل أعمال عادى .

وألقى محتويات الكأس فى حلقه دفعة واحدة ، ثم سعل مع احتقان وجهه ، قبل أن يضيف فى حزم :

ــ إنه محترف .

ران الصمت على المكان لحظات ، قبل أن يكرِّر (كاهان) فى شراسة :

ــ محترف ؟!

ثم اتجه إلى مقعده الأثير ، وألقى جسده فوقه ، وراح يفكِّر فى عمق ، وقد انعقد حاجباه على نحو مخيف ، ثم قال فى حدة :

ــ هل يتعمدون إرباكنا ؟

أجابه القاتل فى برود :

ــ يمكننا قتله أيضًا .

أدار (كاهان) عينيه إليه فى صمت غاضب ، وظلّ على هذا الوضع نصف دقيقة كاملة ، قبل أن يقول فى حنق :

ــ يا له من اقتراح ؟!

قال (إيزاك) فى صرامة :

ــ ولكن يبدو أنه أفضل ما لدينا ، فقتل كليهما أفضل من المخاطرة بقتل الشخص الخطأ .

قال (كاهان) فى حدة :

ــ وماذا عن الثالث ، (رشدى كامل) هذا ؟

هزَّ (إيزاك) كتفيه ، قائلًا :

ــ إنه لا يبدو لى رجل مخابرات أبدًا .

قال (كاهان) فى صرامة :

ــ فليكن .. لن أخاطر بتركه على قيد الحياة .

ثم التفت إلى قاتله المحترف ، وأضاف فى حزم :

ــ اقتلهم جميعًا .

تألّقت عينا القاتل فى جذل شرس ، وهو يقول :

ــ كما تأمر يا سيِّدى .

وغادر المكان فى خطوات ثقيلة قوية ، جعلت (إيزاك) يتابعه فى صمت ، قبل أن يقول فى لهجة أقرب إلى السخرية :



— يا له من وحش بشرى !!

نهض (كاهان) من مقعده ، واتجه إلى السلم ، الذى يقود إلى الطابق الثانى ، حيث حجرة نومه ، وهو يقول فى صرامة :

— عملنا يحتاج دائمًا إلى هذه الوحوش البشرية .

تمتم (إيزاك) فى لهجة غامضة :

— حقًا ؟!

رمقه (كاهان) بنظرة صارمة ، ثم بدأ يصعد فى درجات السلم ، قائلًا فى لهجة آمرة :

— إننى أحتاج إلى قسط من النوم ، ولا أريد أن يزعجنى أحد .

اعتدل (إليعازر) فى وقفة عسكرية ، وهو يقول :

— كما تأمر يا سيّدى .

صعد (كاهان) إلى الطابق الثانى ، وهو يغمغم فى عصبية :

— لا أحد يقدّر خطورة الأمر .

ودفع باب حجرة نومه فى حدة ، ثم مدّ يده ليشعل الضوء ، و ...

وفجأة لمح تلك الهراوة المتجهة إلى رأسه فى الظلام ..

وفتح شفتيه ليهتف بشئ ما ..

ولكن الهرواة سبقته ، و ...

وسقط فاقد الوعى ..

★ ★ ★

٦ ـ هجوم مضاد ..

نهض مدير الشركة المصرية الفرنسية ، يستقبل (ريم) بابتسامة عريضة ، وصافحها فى حرارة ، وهو يقول بالفرنسية فى ترحاب :

ـ مرحبًا بك فى (باريس) يا آنسة (ريم) .

صافحته (ريم) بدورها ، وهى تقول :

ـ أشكرك يا سيِّدى ، وأرجو أن تكون مهمتى ناجحة هذه المرة .

جلس محتفظًا بابتسامته ، وهو يقول :

ـ ستكون كذلك بالتأكيد .. صحيح أنها أوّل مرة نلتقى فيها وجهًا لوجه ، ولكن لدىّ شعور بأنك تصلحين لهذا العمل تمامًا .

أومأت برأسها شاكرة ، ثم جلست على المقعد المقابل لمكتبه ، وسألته على نحو مباشر مباغت :

ـ ما المطلوب منى عمله بالضبط ؟

كان من الواضح أن أسلوبها قد فاجأه ، فلقد تراجع بحركة حادة ، وهو يتطلَّع إليها فى دهشة ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، وهو يعود للميل نحوها ، قائلًا :

ـ هل تتعجلين بدء العمل إلى هذا الحد ؟

أجابته فى هدوء ، لم يخل من الصرامة :

ـ لقد سافرت من (القاهرة) إلى (باريس) ، وأنا أجهل طبيعة مهمتى ، ولن أحتمل البقاء هنا طويلًا ، دون معرفة المطلوب منى بالضبط .

ابتسم وهو يومئ برأسه ، قائلًا :

ـ أنت على حق .

واقترب بوجهه منها ، قائلًا فى لهجة تشفّ عن خطورة الأمر :

ـ سأخبرك .. سأخبرك بالمطلوب منك بالضبط .

واستمعت إليه فى اهتمام بالغ ..

وبدأت تشعر بصعوبة مهمتها ..

وخطورتها ..

* * *

أوقف (رءوف ذهنى) سيارته ، فى موقف السيارات الخاص بفندق (ريتز) ، وغادرها فى هدوء ، حاملًا حقيبة أنيقة صغيرة ، وشفتاه تحملان ابتسامة ظافرة واضحة ، جعلت عامل الموقف يتجه إليه فى سرعة ، ويهتف بابتسامة واسعة :

ـ هل ربحت صفقة جيِّدة يا سيِّدى ؟

اتسعت ابتسامة (رءوف) ، وهو يربِّت على الحقيبة ، قائلًا :

ـ إلى حد ما .

تهلّلت أسارير العامل ، عندما نقده (رءوف) بقشيشًا كبيرًا ، وراح يهتف خلفه :

ـ تهانئى يا سيِّدى .. تهانئى .

استقلّ (رءوف) مصعد الفندق الفاخر إلى الطابق السابع من الفندق ، حيث جناحه الأنيق ، وتمتم لنفسه ، وهو يفتح باب الجناح :

ـ أظنها أفضل صفقات هذا العام .

دلف إلى الجناح المظلم فى هدوء ، وأغلق بابه خلفه ، دون أن يشعل الأضواء ، ثم ألقى حقيبته فوق الفراش الوثير ، الذى تسلل إليه ضوء

القمر ، عبر فتحات النافذة ، وألقى فوقه خيوطًا فضية رفيعة ، وخلع سترته فى هدوء ، و ...

وفجأة لمح ذلك البريق الخافت ، عند طرف ستارة النافذة ..

وفجأة أيضًا أدرك طبيعته ..

وفى لحظة واحدة ، انطلقت تلك الرصاصة الصامتة ، من فوهة مسدّس مزوَّد بكاتم للصوت ، وانحنى (رءوف) ..

ومن المؤكَّد أنه قد انحنى فى الوقت المناسب تمامًا ، فقد سمع أزيز الرصاصة ، وهى تعبر فوق رأسه ، قبل أن ينقضّ على مصدرها بكل قوته ..

وأمسكت يده معصم صاحب المسدس ، ورفع ذراعه إلى أعلى ، وهو يجذبه إليه فى شدة ، هاتفًا :

ـــ هيا يا رجل .. اخرج وواجهنى .

هوت قبضة القاتل على معدته ، وهو يهتف فى شراسة :

ـــ فليكن ، ولكنك ستندم على المواجهة .

احتمل (رءوف) آلام اللكمة ، وضرب يد القاتل بحافة النافذة ، ليجبره على إفلات مسدّسه ، ثم كال له لكمة عنيفة فى فكه ، ألقته أرضًا ، وهو يقول :

ـــ أتظن الندم سيكون من نصيبى حقًا ؟

سقط القاتل على ظهره ، ثم هبّ واقفًا على قدميه ، وهو يهتف :

ـــ بالتأكيد .

ثم اندفع نحو (رءوف) صارخًا :

ـــ إنك لن تربح أبدًا .

تفادى (رءوف) انقضاضة القاتل فى قفزة جانبية رشيقة ، ثم هوى على رأسه بلكمة قوية ، ألقت الرجل أرضًا ، ولكنها لم تفقده وعيه ، فعاد يعتدل فى حركة حادة ، جعلت يده تلتقط مسدسه الساقط إلى جوار النافذة ، فهبّ واقفًا ، ورفع فوهته نحو رأس (رءوف) ، صارخًا :

ـــ مت أيها المصرى .. مت .

وانطلقت الرصاصة ..

* * *

انتفض (كاهان) فى حدة ، عندما استعاد وعيه دفعة واحدة ، وهبّ جالسًا على أرضية حجرته ، هاتفًا :

ـــ اللعنة !

اتسعت عيناه فى ذهول ، وهو يحدّق فى حجرته ، التى انقلبت رأسًا على عقب ، وأُفرغت أدراجها عن آخرها ، واحتبست الكلمات فى حلقه لحظات ، قبل أن يصرخ :

ـــ (إليعازر) ..

سمع وقع أقدام رجلين ، يصعدان السلم فى سرعة وعجل ، ثم اقتحم حجرته (إليعازر) و (إيزاك) ، اللذان حدّقا فى الحجرة فى ذهول مماثل لذهوله ، قبل أن يهتف (إيزاك) فى استنكار :

ـــ يا للشيطان !.. ماذا حدث ؟

قفز (كاهان) واقفًا على قدميه ، وهو يهتف :

ـــ لقد اقتحم أحدهم حجرتى .

ثم اندفع نحو أحد الأدراج ، وراح يفحص محتوياته فى عصبية ، و (إيزاك) يقول فى ذهول :

ــ اقتحم حجرتك ، ولكن كيف ؟

صرخ (كاهان) :

ــ هل تسألنى ؟

ثم ألقى الدرج أرضًا فى غضب ، مستطردًا :

ــ لقد اختفت أوراق بالغة الخطورة .

تراجع (إيزاك) هاتفًا فى شحوب :

ــ يا للشيطان !

فى حين عقد (إليعازر) حاجبيه فى صمت وتوتر ، وهو يقول :

ــ سيّدى .. هذه البطاقة .

صاح به (كاهان) فى حدة :

ــ أية بطاقة ؟

مدّ (إليعازر) يده فى تردّد ، وانتزع بطاقة مثبتة فى ياقة المعطف المنزلى لـ (كاهان) ، واتسعت عيناه فى جزع ، وهو يهتف :

ــ اللعنة !

اختطف منه (كاهان) البطاقة ، واتسعت عيناه فى ذهول وغضب ، وهو يقرأ العبارة المطبوعة فوقها فى أناقة ، قبل أن يلقيها أرضًا ، صارخًا :

ــ فليذهب هؤلاء المصريون إلى الجحيم .

ودون أن يتحرَّك (إيزاك) من مكانه ، التقطت عيناه تلك العبارة المطبوعة فوق البطاقة ، والتى تقول :

ــ مع تحيات المخابرات العامة المصرية .

وانعقد حاجباه فى غضب ..

* * *

حمل (رشدى كامل) حقيبته تحت أبطه ، وهو يسير فى خطوات متثاقلة ، مقتربًا من فندقه الرخيص ، فى شارع جانبى من شوارع باريس ، وأخذ يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا ، للحن مصرى شعبى قديم ، يعكس طبيعته المصرية ، ومنشأه فى حى (الموسكى) ، ثم لم يلبث أن تثاءب مغمغمًا :

ــ يبدو أننى أحتاج إلى نوم عميق .

لم ينتبه ، وهو يسير بهذا التراخى ، إلى رجل ضخم الجثة ، يتبعه منذ غادر الشارع الرئيسى ، على الرغم من أن الضوء الآتى من خلفه ، كان يلقى ظلّ الرجل إلى جوار ظلّه مباشرة ..

ثم توقَّف (رشدى) بغتة ، وانحنى يتطلَّع إلى رباط حذائه ، قبل أن يهتف ، فى لهجة تجمع ما بين السخط والضجر :

ــ يا لرباط الحذاء اللعين !.. لماذا يصرّ على الإفلات دائمًا ، عندما أكون مجهدًا ، إلى الحد الذى يمنعنى من الانحناء ؛ لإعادة ربطه .

زفر فى ضيق ، ومال ليستند بظهره إلى الحائط ، ثم لم يلبث أن اعتدل فى حدة ، هاتفًا :

ــ يا إلهى .. كدت أؤذى .. نفسى .

ابتعد قليلًا عن صندوق معدنى صغير ، ثم عاد يستند إلى الحائط ، وانحنى يعقد رباط حذائه فى إحكام ، وهو يقول :

ــ حاول ألّا تفلت مرة أخرى أيها اللعين .

توقَّفت أمامه ، فى نفس اللحظة ، قدمان كبيرتان ، فتطلَّع إليهما وهو منحن ، ثم رفع رأسه يتطلَّع إلى وجه صاحبهما ، الذى بدا ضخمًا شرسًا ، برأسه الأصلع وملامحه الغليظة ، فاعتدل (رشدى) ، وقال بابتسامة مرتبكة :

ــ معذرة .. كنت أعقد رباط حذائى فحسب ، و ..

اتسعت عيناه ، عندما استلَّ الرجل فجأة خنجرًا ضخمًا ، وهتف (رشدى) :

ــ ماذا تفعل ؟

وبلا رحمة ، هوى الضخم بخنجره على صدر (رشدى) ..

وانطلقت صرخة مخيفة فى الشارع الضيق ..

صرخة رجل يحتضر ..

* * *

اقرأ الجزء الثانى ، فى العدد القادم من كوكتيل ٢٠٠٠



لعبة العمر

(قصة قصيرة)

« خطأ يا (حسن) بك .. هذا غير جائز أبدًا .. » .

انعقد حاجبا (حسن) فى غضب ، عندما صكَّت هذه العبارة مسامعه ، وقال فى حدة :

ــ ولماذا لا يجوز هذا يا شيخ (رفعت) ؟ .. ألم نفعل هذا مرتين من قبل ؟

أومأ الشيخ (رفعت) ، مأذون المنطقة برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ بلى يا (حسن) بك .. لقد طلقت زوجتك مرتين ، وزوَّجتكما أنا نفسى بعد كل مرة منهما ، ولكن الطلاق الثالث طلاق بائن نهائى ، لا يجوز بعده أن تردّها إلى عصمتك .

صاح (حسن) فى عصبية :

— كيف لا يجوز هذا ؟.. إنها زوجتى .

أجابه الشيخ (رفعت) فى حزم :

— شرع الله (سبحانه وتعالى) يقول أن هذا غير جائز ، وكان عليك أن تنتبه لهذا ، فلا تتسرع بتطليق زوجتك ثلاث مرات .

راح (حسن) يحرّك رأسه فى توتر ، وهو يقول :

— لابد من وجود حل يا شيخ (رفعت) ..إنك لا ترضى لى أن أخسر كفاح عمرى كله .. أنت تعلم أن كل هذه الأموال والمصانع ملك لزوجتى ، وطلاقها يعنى أن أخسر كل هذا .

أجابه الشيخ فى صرامة :

— كان ينبغى أن تنتبه .. قل لى بالله عليك : لماذا تطلق زوجتك ، ما دمت تحتاج إلى أموالها هكذا ؟

قال (حسن) فى عصبية :

— كانت وسيلة لإخضاعها ، فهى غارقة فى حبى كما تعلم .

قال الشيخ (رفعت) فى غضب :

— الزواج والطلاق ليسا لعبة يا سيد (حسن) .

لوّح (حسن) بكفه ، قائلًا :

— أعلم .. أعلم ، ولكن لابد من وجود حل .

مطّ الشيخ (رفعت) شفتيه ، وقال :

— لا يوجد حل ، سوى ..

هتف (حسن) فى لهفة :

— سوى ماذا ؟

هزّ الشيخ (رفعت) كتفيه ، وقال :

— سوى أن تتزوّج زوجتك من شخص آخر ، ثم يطلقها ، فتتزوّجها أنت .

هتف (حسن) فى ارتياح :

— إنه أمر بسيط إذن ، فلنستأجر من يتزوّجها و ...

قاطعه الشيخ (رفعت) فى غضب :

— لا .. هذا لا يصحّ .. الشرع لا يعترف بمثل هذا الزواج ، فالشرط فى الزواج هو نية الدوام عند عقد القران ..

مال (حسن) نحوه ، يسأله فى ضراعة :

— ألا يمكننا تجاوز هذه النقطة ؟

هبّ الشيخ (رفعت) واقفًا ، وهو يهتف :

— أعوذ بالله من غضب الله !! هل تحاول رشوة السماء يا سيد (حسن) .. لا .. وألف لا .. الشرع ليس لعبة تتحايل عليها يا سيد (حسن) ، لابد أن يكون الزواج سليمًا ، يسعى الزوج فيه للاستمرار والدوام ، وإلا كانت اعادتك زوجتك إلى عصمتك مجرّد زنا ..هل تفهم ؟..

زنا واندفع مغادرًا المكان ، وهو يردّد فى غضب :

— أعوذ بالله !! أعوذ بالله !!

عقد (حسن) حاجبيه فى توتر ، وهو يحدث نفسه ، قائلًا :

— ماذا يعنى هذا ؟.. هل فقدت كل تلك الأموال بسبب طلاق واحد ؟.. مستحيل .. لن أخسر كل هذا بهذه البساطة .. يا إلهى !! لو أن قتلها يحلّ المشكلة لقتلتها ، ولكن هذا سيعنى أن يرث أقاربها الثروة كلها ، أما لو ماتت وهى زوجتى ، فسأرث أنا معظم ثروتها تقريبًا .

أخذ يقلب كل الحلول فى رأسه ، وأعصابه تلتهب فى شدة ، حتى سمع صوتًا ضعيفًا يقول :

— سيِّدى .

انتفض فى مقعده ، ورفع وجهه إلى فراش مكتبه ، وصاح به فى غضب :

— ماذا تريد ؟

رأى الدموع تملأ عينى الفراش الكهل ، وهو يجيبه :

— ماذا تريد أنت يا سيِّدى ؟.. لقد سمعت جرس الاستدعاء .

تطلّع (حسن) إلى زر جرس الاستدعاء أمامه ، أدرك أنه قد ضغطه دون وعى منه ، فتمتم :

— معذرة يا عم (توفيق) .. إننى لا أطلب شيئًا .

ثم أشار إلى عينى الرجل ، مستطردًا :

— ولكن لماذا تبكى ؟

لم يكد يلقى السؤال على الرجل ، حتى تفجّرت كل الدموع الحبيسة فى عينى الكهل ، وراح يبكى فى مرارة ، جعلت (حسن) يسأله فى قلق :

— ماذا حدث يا عم (توفيق) .. أخبرنى يا رجل .. أخبرنى .

حاول عم (توفيق) أن يجفف دموعه ، وهو يقول :

— كنت أعانى من آلام بصدرى منذ زمن ، وعندما تزايدت هذه

الآلام ، فى الآونة الأخيرة ذهبت إلى طبيب شهير ، أنبأنى بأننى مصاب بورم خبيث فى الرئة ، وأن أيامى فى الدنيا أصبحت معدودة .

قالها وانهار باكيًا ، فربَّت (حسن) على كتفه ، قائلًا :

— لا تبك هكذا يا رجل .. الأعمار بيد الله .

قال عم (توفيق) فى مرارة :

— لست أبكى عمرى يا سيِّدى ، بل أبكى زوجتى وأبنائى الخمسة ، ماذا سيفعلون بعد موتى ؟.. إننى لم أملك يومًا سوى مرتبى ، ولن أترك لهم قرشًا واحدًا .

وفجأة قفزت الفكرة كلها إلى رأس (حسن) ، فاتسعت عيناه ، والتمعتا فى شدة ، وهو يسأل عم (توفيق) :

— وكم بقى لك فى الدنيا يا عم (توفيق) ؟

أجابه الكهل باكيًا :

— يقول الأطباء إن أمامى شهرًا واحدًا على الأكثر .

برقت عينا (حسن) أكثر ، وربَّت على كتف عم (توفيق) ، ثم سأله :

— قل لى يا عم (توفيق) : ما رأيك فى مائة ألف جنيه ؟

رفع الكهل عينيه إليه ، وهتف فى دهشة :

— مائة ألف جنيه ؟!

قال (حسن) بسرعة :

ــ نعم يا عم (توفيق) .. أنا مستعد لإعطائك مائة ألف جنيه ، عدًا ونقدًا ، تتركها لأبنائك بعد وفاتك .

هبَّ الكهل من مقعده ، وأمسك يد (حسن) ، يحاول تقبيلها هاتفًا :

ــ أبقاك الله ورعاك يا سيِّدى ، و ...

قاطعه (حسن) فى صرامة :

ــ مقابل خدمة بالطبع .

توقَّف الكهل ، ووقف مرتبكًا ، وهو يقول :

ــ إننى مستعد لخدمتك بعمرى يا سيِّدى ، ولكن أرجو أن تكون خدمة جيِّدة ، فلست مستعدًا للقاء ربى بذنب كبير ، أو ..

قاطعه (حسن) مرة أخرى :

ــ لا .. إنها خدمة حلال تمامًا ، وشرعية أيضًا .

عقد الكهل حاجبيه فى حيرة ، وهو يسأله :

ــ وما هى هذه الخدمة يا سيِّدى ؟

جلس (حسن) خلف مكتبه ، وقال :

ــ أن تتزوَّج .

هتف الكهل مستنكرًا :

ــ أتزوَّج ؟!

انطلق (حسن) يشرح له مشكلته ، دون الإشارة إلى الأموال ، وأقنعه أنه يحبّ زوجته ، ويرغب فى إعادتها إلى عصمته ، ثم أضاف :

ــ وزواجك منها سيكون شرعيًا تمامًا ، فلن تطلقها ، بل ستكون النية هى الدوام ، ولكنك ستموت بعد شهر واحد ، فتصبح هى أرملة ، ويحق لى الزواج منها شرعًا .

لاحظ التردد على وجه الكهل ، فتابع بسرعة :

ــ أظنك تستطيع إقناع زوجتك بقبول هذا ، من أجل أبنائكما .. أليس كذلك ؟.. لست أظن عمرك يساوى أكثر من هذا .

أجابه الرجل فى استسلام .

ــ اقناع زوجتى ليس بالمشكلة الكبرى يا سيِّدى ، فالفقراء يعتادون قبول الكثير ، من أجل لقمة العيش .. المشكلة هى إقناع زوجتك أنت بهذا .

ابتسم (حسن) ، وهو يقول :

ــ دع لى هذه المشكلة .

ولم يرهقه الأمر كثيرًا ، فقد كانت زوجته تحبه بحق ، مما جعلها توافق على الزواج صوريًا من عم (توفيق) ، وفى اليوم التالى مباشرة تمّ عقد القران ، وذهب (توفيق) للعيش فى فيلا الهانم ، فى حين اتجه (حسن) إلى مكتبه ، وجلس مبتسمًا ، يهنىء نفسه على ذكائه ، وهو يقول :

ــ هكذا يكون كل شىء سليمًا وشرعيًا ، وما هو إلا شهر واحد وينتهى عمر عم (توفيق) ، وتنتهى معه المشكلة ، وتعود لى زوجتى بكل أموالها ..

امتلأ زهوًا بذكائه ، فراح يُطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا ، قطعه فجأة رنين الهاتف ، فالتقط سمّاعته ، ووضعها على أذنه ، قائلًا :

ــ من المتحدِّث ؟

سمع صوت خادمه يقول :

ــ معذرة يا سيِّدى .. لقد حدث أمر مفاجئ .. البقاء لله (سبحانه وتعالى) .. الأعمار بيد الله و ...

قاطعه فى لهفة :

— هل مات عم (توفيق) قبل الأوان ؟

بكى صوت الخادم ، وهو يقول :

— بل هى الهانم .

اتسعت عينا (حسن) فى ذهول ، وهو يردِّد :

— الهانم ؟!

قال الخادم فى مرارة وحزن شديدين :

— نعم يا سيِّدى .. إنه حادث سيارة .. لقد قضت نحبها على الفور .. أكثر ما يؤلمنى يا سيِّدى هو أن ذلك الفراش الكهل سيرث ثروتها كلها ، و ...

لم يسمع (حسن) باقى الحديث ، بل ترك الهاتف يسقط ويتحطَّم أرضًا ..

لقد أدرك أنه خسر اللعبة ..

لعبة العمر ..

* * *

١ ــ التائه ..

لم تشهد الصحراء الغربية المصرية يومًا قائظًا ، شديد الحرارة ، مثل ذلك اليوم من أيام صيف ١٩٤٧ م ، إذ التهبت الشمس فى كبد السماء ، كقرص من نار ، أشعلت رمال الصحراء الصفراء ، فجعلتها أشبه بجمر ملتهب ، وتصاعدت منها أمواج الهواء الساخن ، تتراقص أمام الأعين ، فتموّج معها كل الصور والمشاهد ، وتتراقص رقصة رهيبة ، تعرف باسم رقصة اللهب ..

فى هذا الطقس الرهيب راح زنجى نحيل يدفع قدميه دفعًا إلى الأمام ، والعرق يغمر وجهه وصدره ، ويتساقط على الرمال ، فتلتهمه فى شراهة ، ثم تتطلّع للمزيد ، والزنجى يلقى بصره على امتداده ، دون أن يرى أمامه سوى تلال لا نهاية لها من الرمال ، تمتدّ حتى الأفق من كل اتجاه ، فيغمغم فى يأس :

ــ لا فائدة .. لا فائدة .. إنها اللعنة !

انعكست أشعة الشمس على جبهته ، فمدّ يده يمسح عرقه ، ثم رفع زمزميته الصغيرة إلى شفتيه ، وحاول أن يلتقط من أعماقها قطرة ماء واحدة ، إلا أن الزمزمية الساخنة أعلنت فراغها بفيض من الهواء الحار ، جعله يشيح بفمه عنها ، ثم يلقيها بامتداد ذراعه ، متمتمًا :

ــ أعلم أنه ما من فائدة .

خيّل إليه ــ فى تلك اللحظة ــ أنه يلمح من بعيد أجسامًا تتحرّك نحوه ، فتوقّف فى توتُّر ، وقال لنفسه :

ــ أهو سراب ، أم هو الأمل ؟

بدا له مشهد تلك الأجسام متراقصًا ، مع الحرارة المنبعثة من الرمال ، فغمغم فى قلق :

ــ أظنه سراب ، أو ...

تناهى إلى مسامعه صوت محركات سيارات (الجيب) ، فهتف :

ــ بل هو حقيقة .. الأذن لا تسمع سرابًا ، إنها النجدة .. قافلة النجدة .

بعث الخاطر فى ذهنه قوة ، جعلته يعدو نحو السيارات ، ملوّحًا بذراعيه ، وهاتفًا :

ــ النجدة !! أنا هنا .. النجدة !!

رأى السيارات تتوقّف ، ثم تنحرف باتجاهه ، فصاح :

ــ لقد رآونى .. لقد نجوت .. نجوت بعد كل هذا الرعب والعذاب .. نجوت .

خُيِّل إليه أن جسده قد اكتفى من التعب بكل هذا ، بعد أن لاح الأمل فى الأفق ، فمادت به الأرض ، وأظلمت السماء فى وجهه ، و ...

وسقط فاقد الوعى ..

° ° °

لم يدر الزنجى كم بقى فاقد الوعى ، ولكنه ــ عندما استعاد وعيه ــ كان يرقد على فراش بدائى ، داخل خيمة كبيرة ، وكان هناك رجل يرتدى سروالًا قصيرًا ، وقميصًا من القطن ، ينفث دخان سيجارة قصيرة ، فاعتدل الزنجى ، وقال :



ــ أين أنا ؟

التفت إليه الرجل ، وقال فى هدوء :

ــ اطمئن يا فتى .. لقد انقذناك .. من الواضح أنك قد قطعت مسافة كبيرة على قدميك العاريتين ، فقد التهب باطن القدمين على نحو رهيب ، وتسلخت ساقاك .

انتبه الزنجى فى هذه اللحظة فقط إلى الضمادات ، التى تحيط بساقيه وقدميه ، فى حين استطرد الرجل :

ــ أأنت أحد أفراد بعثة علماء الآثار المصرية البريطانية ؟

بدا الحزن على وجه الزنجى ، وقال :

ــ نعم .. أنا آخر أفراد البعثة ، وإن لم أكن أبدًا أحد علمائها .

جلس الرجل على طرف فراشه ، وسأله فى اهتمام :

ــ من أنت إذن ؟

أجابه الزنجى :

ــ أنا (عثمان) ، خادم (خالد) بك ، عالم الآثار المصرى ، وأحد أفراد البعثة .

سأله الرجل :

ــ لماذا تقول أنك آخر أفراد البعثة يا (عثمان) ؟.. هل لقى الجميع مصرعهم ؟

أومأ (عثمان) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ تقريبًا .

سأله الرجل :

ــ ماذا تعنى بـ (تقريبًا) ؟

بدت عينا (عثمان) الحزينتين كبحيرة من الألم ، وهو يجيب :

ــ أعنى أنك لن تجد جثة واحدة .. لقد ذهب الجميع .

سأله الرجل فى اهتمام :

ــ أتعنى أنك قد قمت بدفنهم جميعًا ؟

هزَّ (عثمان) رأسه نفيًا ، وقال فى ألم :

ــ لم تكن هنا جثث لأدفنها .. لقد ذهب الجميع هكذا .. دون أجساد ..

تراجع الرجل فى دهشة ، وسأله :

ــ ما الذى تعنيه يا (عثمان) ؟

ازدرد (عثمان) لعابه ، وقال :

ــ إنها قصة طويلة يا سيِّدى ..

قال الرجل فى اهتمام :

قصها علىَّ .

تنهد (عثمان) ، وقال :

— لست أظنك تصدّق حرفًا واحدا منها يا سيّدى ، فلولا ما رأيته منها بعينىّ ، ما صدقت من يرويها على مسامعى ، ولو أقسم بأرواح آبائه وأجداده إلى سيدنا (آدم) عليه السلام .

سأله الرجل :

— أهى عجيبة إلى هذا الحد ؟

ارتجف (عثمان) ، وهو يقول :

— بل رهيبة .

سحب الرجل نفسًا عميقًا من سيجارته ، وهو يتطلّع إلى (عثمان) فى شك ، ثم لم يلبث أن نفث الدخان فى قوة ، قبل أن يقول :

— اسمع يا (عثمان) .. إننا بعثة إنقاذ ، مهمتنا هى البحث عن بعثة الآثار ، وإنقاذ من بقى حيًا منها ، لذا أريد منك أن تخبرنى بكل ما لديك ، مهما بدا لك عجيبًا أو مخيفًا .

أومأ (عثمان) برأسه إيجابًا ، وقال :

— سأقصها على مسامعك يا سيّدى ، ولكن حاول أن تستمع إلىّ جيّدا ، فلست أظننى بقادر على إعادة أى جزء منها ، مهما كانت الأسباب .

اعتدل الرجل ، وقال :

— هيا .. كلى آذان صاغية .

التقط (عثمان) نفسًا عميقًا ..

وأخذ يروى ..

° ° °

٢ — المقبرة ..

ما زلت أذكر ذلك اليوم المشئوم ، الذى بدأت فيه هذه الأحداث الرهيبة ..

كان السابع من يوليو ، حيث بلغت حرارة الطقس حدًا لا يطاق ، وعمال البعثة الخمسة منهمكون فى حفر رمال الصحراء ، فى تلك البقعة المقفرة ، على بعد أربعة كيلومترات فى قلب الصحراء ، غربىّ (وادى الملوك) ..

وكانت البعثة تضمّ ثلاثة فقط من علماء الآثار ، بالإضافة إلى العمال الخمسة ، وأنا ، وبين هؤلاء العلماء الثلاثة مصرى واحد ، هو سيّدى (خالد) ، الذى درس علم المصريات ، ونافس فيه زميليه البريطانيين .. بل فاقهما بذكائه ومصريته ..

فى ذلك اليوم جلس البريطانيان (سمبسون) و (بيل) ، مع سيّدى (خالد) فى خيمته ، ورحت أنا أعدّ لهما أكواب الشاى المعتادة ، وأنا أسمع (سمبسون) يقول فى ضجر ، بلغته الانجليزية ، التى اتقنتها ، بحكم عملى الطويل معهم :

— لا يا (خالد) .. أنا أخالفك الرأى تمامًا ، فى احتمال وجود مقبرة فرعونية هنا ، فكل مقابر الجانب الغربى تجتمع فى (وادى الملوك) ، أو حوله .

هزّ سيّدى (خالد) رأسه فى عناد ، اكتسبه من والده — رحمه الله — وقال فى حزم :

— وماذا عن تلك البردية ، التى عثرت عليها فى مقبرة (خان — حر) ؟.. أليست دليلا قاطعا على وجود مقبرة ذات طابع خاص هنا ؟

لوّح (بيل) بيده معترضا ، وهو يقول :

— ولكننا حفرنا نصف المنطقة تقريبًا ، دون أن نعثر على حجر أثرى واحد .

أجابه (خالد) فى ثقة :

— سنعثر عليه إن عاجلا أو آجلا .. لا تنسى أن (كارتر) لم يعثر على مقبرة (توت — عنخ — آمون) ، إلا بعد سنوات من البحث(*) .

مطّ (سمبسون) شفته السفلى ، وقال :

— لن أحتمل بضعة أيام أخرى ، فى هذا الجحيم .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى هتف أحد العمال ، وهو يعدو نحو الخيمة :

— سيّدى (خالد) .. سيّدى (خالد) .. لقد عثرنا على المدخل .

اتسعت عينا (خالد) فى لهفة ، وهتف بالانجليزية ، مترجمًا النداء لرفيقيه :

— يبدو أننا بلغنا الهدف .

(*) بدأت عملية البحث عن مقبرة (توت — عنخ — آمون) ، بتمويل من لورد (كارنارفون) ، وسعى متصل من (هوارد كارتر) ، اعتبارا من عام ١٩٠٣ م ، إلى الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢ م ، عندما ظهرت أوّل درجة من درجات سلم المقبرة ، وبعدها استمر الحفر حتى السادس والعشرين من الشهر نفسه ، وبعدها أعلن (كارتر) رسميًا عثوره على المقبرة ، التى ارتبط العثور عليها بذلك المصطلح ، الذى يردّده العالم اليوم ، ألا وهو مصطلح (لعنة الفراعنة)..

اندفع الثلاثة خارج الخيمة ، وقد نسوا أمر الشاى ، الذى انتهيت من إعداده تقريبًا ، فأحطت وعاء الشاى بمنشفة سميكة ، حتى لا تنخفض درجة حرارته بسرعة ، ثم لحقت بهم عند الحفرة ، وهناك وقع بصرى على جزء من باب حجرى سميك ، ظهر جزء كبير منه مع رفع الرمال ، وبدا على ذلك الجزء الظاهر رسم يشبه وجه وعنق طائر ضخم ، ينفث النيران من حلقه ، وقد انفرد جناحاه عن آخرهما ، على نحو مهيب مخيف ، جعل (سمبسون) يُطلق صفيرًا عاليًا ، ويهتف :

— يا إلهى !.. يبدو أنها مقبرة غير تقليدية بالفعل .

حثّ (خالد) العمال الخمسة على رفع باقى الرمال ، ثم التفت إلى رفيقيه ، يقول :

— إننى لم أر مثل هذا الشعار أبدًا من قبل ، فهو ليس شعارًا ملكيًا معروفًا ، ولا حتى يشبه شعارات كبار الكهنة .

قال (بيل) فى شغف :

— ربّما كانت مقبرة من مقابر الأسر القديمة .

هزّ (خالد) رأسه ، وقال :

— لا .. لست أظن هذا ..

بدا لى أن الأمر سيستغرق وقتا طويلا ، قبل كشف مدخل المقبرة تمامًا ، فعدت إلى الخيمة ، وأحضرت مظلة كبيرة ، وثلاثة مقاعد للسادة ، ومنضدة صغيرة ، ووضعت كل هذا أمام الحفرة ، ثم رحت أصبّ لهم الشاى ، فى الوقت الذى كان (بيل) يكمل فيه حديثًا ، لم أسمع بداياته ، وهو يقول فى إصرار :

ـ لا يا (خالد) .. إنها ليست مقبرة ملكية حتما ، فلا توجد بها أية علامات تشير إلى هذا ، ثم إن بها أمرًا عجيبًا ، يثير حيرتى .

سأله (خالد) فى اهتمام :

ـ ما هو ؟

اعتدل يرتشف الشاى فى بطء ، ويجيب :

ـ إن مدخلها لا يحمل رسم مفتاح الحياة ، كما يحدث عادة فى المقابر الفرعونية القديمة ، على الرغم من أن إيمان المصريين القدماء بالبعث أمر بالغ الأهمية ، وهم يضعون رسم مفتاح الحياة على مقابرهم ؛ ليساعدوا روح الميت على العودة إلى الحياة ، وليعلنوا لآلهتهم رغبتهم فى هذا .

ابتسم (سمبسون) وقال :

ـ ربما لا يرغبون فى عودة الحياة ، إلى ساكن هذه المقبرة .

انعقد حاجبا سيِّدى (خالد) فى اهتمام ، وبدا أكثر الجميع وسامة وملاحة ، وهو ينزع قبعته عن رأسه ، ويداعب شعره الأسود الفاحم الغزير بأصابعه ، قائلًا :

ـ ربّما .

أتاه فى هذه اللحظة أحد العمال ، يقول فى صوت يحمل رنة خوف :

ـ لقد انتهينا من كشف المدخل يا سيِّدى ، ولكن الرجال يشعرون بالخوف .

سأله (خالد) فى دهشة :

ـ ولماذا يشعرون به ؟

أشار العامل إلى موضع المقبرة ، قائلًا :

ـ انظر بنفسك .

نهض العلماء الثلاثة لرؤية المدخل ، ودفعنى الفضول إلى أن أتبعهم بدورى ، ولم أكد ألقى أوّل نظرة على المدخل ، حتى وجدت نفسى أرتجف بدورى ..

كان الرسم على المدخل رهيبًا بحق ، إذ كان ذلك الطائر الضخم ، الذى يفرد جناحيه ، وينفث اللهب يقف فوق عشرات البشر ، ويغرز فيه مخالبه ، فتسيل منهم الدماء ، وتلوح على وجوههم أبشع آيات الرعب والفزع والألم ، فى حين أطلّت من عينى الطائر نظرة وحشية مخيفة ، جعلتنى أتمتم :

ـ رحماك يا إلهى !

التفت إلىّ سيِّدى (خالد) ، ورمقنى بنظرة صارمة ، ثم عاد يتطلّع إلى الرسم الرهيب ، وقال فى هدوء :

ـ لا بأس .. إنه مجرّد رسم .

قال (سمبسون) فى رهبة :

ـ ولكن ماذا يوجد داخل تلك المقبرة اللعينة ، مما يستوجب وضع مثل هذا الرسم البشع على مدخلها ؟

هزّ (خالد) كتفيه ، وقال :

ـ من يدرى ؟.. ربما تحوى أنفس كنوز الدنيا ، والرسم البشع مجرّد وسيلة لإرهاب اللصوص .

ثم قال للرجال فى حسم :

ـ هيا يا رجال .. سنرفع هذا الباب .

بدا التردد على وجه الرجال ، فأضاف مبتسمًا :

ــ وسأمنح كل منكم جنيهًا إضافيًا ، بالإضافة إلى مكافأة الكشف عن المقبرة .

هزم الطمع بعض الخوف فى أعماق الرجال ، فعادوا إلى العمل ، وتكاتفوا لرفع الباب الحجرى الثقيل ، إلا أن الباب بدا وكأنه جبل هائل ، يعجز أضعاف أضعافهم عن مجرَّد زحزحته ، حتى لهث الرجال وتهالكوا ، دون أن يتحرَّك الباب قيد أنملة ، وهنا قال (بيل) :

ــ يبدو أننا سنضطرّ لنسفه .

هتف به (خالد) :

ــ هل جننت ؟

ثم التفت إلى الرجال ، وقال :

ــ استريحوا قليلًا يا رجال ، وبعدها سنصنع ثغرة فى ركن الباب ، تقودنا إلى الداخل .

لم يكن من اللائق أن أبقى طيلة الوقت فى الموقع ، لذا فقد استأذنت سيِّدى (خالد) فى العودة إلى الخيمة ، لإعداد طعام الغذاء ، فسمح لى بذلك ، وطلب منى صنع كمية إضافية للعمال الخمسة ، الذين سيحتاجون حتما إلى المزيد من الغذاء ، بعد كل ما بذلوه من جهد ..

ولساعتين كاملتين ، انهمكت فى إعداد الطعام ، حتى أننى لم أشعر بما يحدث فى الخارج ، ولم أكد أنتهى من عملى ، حتى ذهبت لأخبر سيِّدى ورفيقيه بذلك ، وهناك وجدت العمال فى اللحظات الأخيرة من فتح الثغرة ، فى الركن الأيسر السفلى من الباب الحجرى الضخم ..

وبضربة معول ، انفتحت الثغرة ..

بل قل انفتحت أبواب الجحيم ..

لقد هبَّت من الثغرة موجة حارة لافحة ، بدت وكأنها نيران الجحيم نفسه ، فصرخ العمال ، وتراجعوا مذعورين ، وامتزجت صرختهم بصرخة رهيبة ، تجمَّدت لها الدماء فى عروق ..

صرخة انبعثت من داخل المقبرة ..

صرخة طائر شيطانى ..

وبعدها ساد سكون رهيب ..

سكون بدا وكأنه يشمل الصحراء كلها ، حتى لقد سكنت الرياح ، وتوقَّفت الأنفاس ، وهبط على الجميع وجوم مخيف ، قطعه سيِّدى (خالد) ، وهو يقول :

ــ يبدو أن الهواء داخل المقبرة كان فاسدًا ، أو منضغطًا ، فاندفع إلى الخارج مع فتح الثغرة و ...

ولا شك أنه أدرك على الفور عقم تلك التفسيرات ، فلم يتمّ حديثه ، وإنما تنحنح وقال :

ــ حسنًا .. حان موعد فحص المقبرة من الداخل .

تراجع العمال فى رهبة ، خشية أن يختار سيِّدى أحدهم لهذه المهمة ، فى حين ازدرد (بيل) لعابه ، وغمغم فى توتر :

ــ فحصها ؟

شدّ (خالد) قامته ، وقال :

ــ نعم .. سأفحصها أنا .

كانت مبادرته جريئة حقًا ، مما ملأ قلبى بالخوف ، فأمسكت يده قائلًا :

— سآتى معك يا سيِّدى .

هتف بى مبتسمًا :

— لماذا ؟ .. إننى لن أعبر المحيط .. إنها مجرَّد مقبرة .

حمل مصباحه فى حماس ، واتجه إلى الثغرة ، وانحنى ليزحف عبرها إلى



داخل المقبرة ، حتى اختفى عن أنظارنا ، فاحتبست الأنفاس كلها فى رهبة ، وتعلّقت العيون كلها بالثغرة ، ومضت الدقائق بطيئة ثقيلة ، حتى لقد خلتها ساعات طوالًا ، مما أفقدنى أعصابى فى النهاية ، فقلت :

— سألحق بسيِّدى .

أمسك (سمبسون) ذراعى فى قوة ، وقال :

— لقد طلب منك أن تبقى .

هتفت متوترًا :

— ولكننى أجهل ما يصيبه هناك ، أليس من المحتمل أن ...

قاطعنى (بيل) ، وهو يهتف :

— ها هوذا .

أدرت عينى إلى الثغرة ، ورأيت سيِّدى يزحف خارجها شاحب الوجه زائغ العينين ، ولم يكد ينهض واقفًا على قدميه ، حتى هتف به (سمبسون) :

— ماذا وجدت ؟

رفع سيِّدى عينيه إليه ، ومضت لحظات لم ينبس فيها ببنت شفة ، قبل أن يقول فى شحوب :

— إنه أمر عجيب .. عجيب بحق .

سأله (بيل) فى قلق :

— أهى مقبرة ملكية ؟

التفت إليه سيِّدى ، وقال :

— بل هى مجرَّد حجرة صغيرة ، تمتلئ جدرانها كلها بالنقوش ، ولا يوجد داخلها سوى قنينة نحاسية كبيرة .

سأله (سمبسون) فى لهفة :

— وما الذى تحويه تلك القنينة ؟

مضت لحظة من صمت عجيب ، بدا فيها سيِّدى أكثر شحوبًا من أية مرة سابقة ، فى عمره كله ، وهو يقول :

— رماد .. مجرَّد رماد .

وكان هذا الجواب عجيبًا .. ومخيفًا .

***

٣ ـ اللعنة ..

لم يدخل أى مخلوق آخر إلى المقبرة ، بعد خروج سيِّدى (خالد) منها ، بل اكتفى (سمبسون) بوضع عاملين أمامها لحراستها ، فى حين عاد هو وسيِّدى و (بيل) إلى الخيمة الرئيسية ، حيث أعددت لهم طعام الغذاء ، فجلسوا يتناولونه صامتين ، يظللهم شعور غامض بالرهبة والقلق ، إلى أن قال (بيل) :

ـ ألم تجد حقًا سوى ذلك الرماد يا (خالد) ؟

أومأ (خالد) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. المقبرة كلها لا تحوى سوى تلك القنينة النحاسية ، بما تحويه من رماد ، ولكن المنقوش على جدرانها هو المهم .

اعتدل (سمبسون) ، وسأله :

ـ وما هو المنقوش على الجدران ؟

التقط (خالد) نفسًا عميقًا ، وزفره فى بطء ، ثم قال :

ـ (العنقاء) .

سأله (بيل) :

ـ ماذا ؟

أجابه (خالد) :

ـ النقوش تقول إن هذه مقبرة (العنقاء) .

هتف (سمبسون) مستنكرًا :

ـ (العنقاء) ؟!.. أى هراء هذا يا (خالد) .. كلنا نعلم أن (العنقاء) طائر خرافى ، لا وجود له فى الواقع ، وإنما هو مجرَّد أسطورة .

قال (خالد) فى إصرار :

ـ وماذا تقول هذه الأسطورة يا رجل ؟.. إنها تقول إن (العنقاء) طائر جهنمى ، متوحش ، ينفث النيران من حلقه ، ثم لا يموت إلا بالنيران نفسها ، وبعد موته يتحوَّل إلى رماد ، ويمكنه بوسيلة لم تذكرها الأسطورة ، أن ينهض مرة أخرى من رماده ، ويعود إلى الحياة .

حاول (بيل) أن يبتسم ، وهو يقول :

ـ رائع .. إنه طائر يناسب طبيعة قدماء المصريين ، الذين يؤمنون ببعث الروح فى الجسد بعد الموت .

قال (سمبسون) فى غلظة :

ـ ليس هذا وقت المرح يا (بيل) .

مطَّ (بيل) شفتيه ، ولاذ بالصمت فى ضيق ، فى حين التفت (سمبسون) إلى (خالد) ، وقال :

ـ إذن فأنت تظن أن ذلك الرماد ، ما هو إلا رماد (العنقاء) .

هزَّ (خالد) كتفيه ، وقال :

ـ ولِمَ لا؟

عقد (سمبسون) حاجبيه الكثين فى غضب ، وهو يقول :

ـ سأخبرك أنا لِمَ لا .. لأننى لا أومن بالأساطير والخرافات يا سيِّد (خالد) .. لا أومن بالغول ولا (العنقاء) ، ولا الساحرات ، ولا كل تلك الخزعبلات الأخرى .. هل فهمت لِمَ لا ؟

تنهَّد (خالد) ، وقال :

ـ هذا شأنك .

ثم أشار إلى خارج الخيمة ، وهو يستطرد :

ـــ ولكن النقوش لا تكتفى بالتحدُّث عن (العنقاء) فحسب .

سأله (بيل) فى اهتمام :

ـــ ماذا تقول أيضًا ؟

أجابه (خالد) فى حسم :

وتقول إنه هناك لعنة ، ستحلّ على من يفتح مقبرة (العنقاء) .

شحب وجه (بيل) ، وهتف :

ـــ لعنة ؟!.. أى نوع من اللعنات ؟

هتف (سمبسون) فى غلظة :

ـــ لست أومن بهذا أيضًا .

ثم نهض مستطردًا فى صرامة :

ـــ اسمع يا (خالد) .. سنحسم أمر هذه المقبرة غدًا ، مع مشرق الشمس ، وبعدها ستعلم أن كل هذا مجرَّد هراء .

قالها وغادر الخيمة فى خطوات سريعة غاضبة ، وساد الصمت داخل الخيمة لحظات ، حتى تنحنحت أنا ، وسألت سيِّدى :

ـــ معذرة يا سيِّدى .. هل تحب تناول الشاى الآن ؟

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يبتسم ابتسامته الرقيقة ، قائلًا :

ـــ لا يا (عثمان) .. شكرًا لك .

وهنا نهض (بيل) بدوره ، قائلًا :

ـــ أنا أيضًا لا أرغب فى شرب الشاى هذه الليلة .. سأذهب إلى خيمتى وأراجع بعض كتبى ، ثم أخلد إلى النوم .

غمغم سيِّدى (خالد) :

ـــ لا بأس .

بقى جالسًا إلى المائدة بعض الوقت ، بعد انصراف (بيل) ، وبدا من شروده أنه غارق فى تفكير عميق ، فاحترمت صمته ، وبقيت صامتًا بدورى ، حتى نهض من مكانه ، والتقط أحد كتبه ، وراح يطالعه فى اهتمام بالغ ..

ورفعت أنا الأطباق عن المائدة ، واهتممت بتنظيفها ، وإعداد فراش سيِّدى (خالد) ، حتى توارت الشمس فى الأفق ، وبدأ الظلام ينتشر فى المكان ، فوضع سيِّدى كتابه ، وفرك عينيه فى إرهاق ، وهنا سألته فى شغف :

ـــ سيِّدى .. هل تؤمن بلعنة الفراعنة ؟

ابتسم فى رقة ، وشرد ببصره لحظات ، ثم التفت إلىَّ مجيبًا :

ـــ لا يا (عثمان) .. لست أومن بها أبدًا .

أراحنى هذا الجواب بالفعل ، وأزاح عن كاهلى حملًا ثقيلًا ، فابتسمت فى ارتياح ، وعاونت سيِّدى على خلع حذائه الكبير ، ولم أكد أنتهى من ذلك ، حتى اندفع أحد حارسى المقبرة إلى الخيمة ، وهو يقول فى هلع :

ـــ سيِّدى .. سيِّدى .. لقد حدث أمر رهيب .. رهيب يا سيِّدى .

هبَّ إليه (خالد) ، وسأله فى قلق :

ـــ ماذا حدث يا رجل ؟

لهث العامل فى انفعال ، وخفض عينيه أرضًا ، وهو يقول :

ـــ لقد لعب الشيطان برأسينا .. أنا ورفيقى .

سأله (خالد) :

ـ ماذا تعنى ؟

أجابه العامل فى أسف :

ـ تصوَّرنا أن المقبرة تمتلئ بالكنوز والذهب ، وأنك تدّعى خلوها من كل هذا ، حتى تصرف أنظارنا عنها .

هتف (خالد) :

ـ يا إلٰهى !.. وماذا فعلتما ؟

أجابه العامل :

ـ لعب الشيطان برأسينا ، وأقنعنى زميلى بالتسلل إلى المقبرة ، والحصول على بعض الذهب لنفسينا ، وأكَّد لى أن أحدًا لن ينتبه إلى ما سنفعله .. ولقد أقنعنى ، فتسلّلنا إلى المقبرة .

أمسك (خالد) ذراع الرجل فى قوة ، وهو يهتف به فى انفعال :

ـ وماذا حدث هناك ؟

كاد العامل يبكى ، وهو يقول :

ـ لم نجد شيئًا داخل المقبرة ، سوى تلك القنينة النحاسية الكبيرة ، وما بها من رماد ، فأصابنى الحنق ، واتهمت صديقى بالغباء والجهل ، وقلت له إننى سأخبرك بما حدث ، وحاول منعى بالقوة ، فتشاجرنا ، و ... و ...

هتف به (خالد) :

ـ وماذا ؟

بكى العامل بالفعل ، وهو يقول :

ـ وقتلته .

اتسعت عينا (خالد) ، وهتفت أنا مذعورًا :

ـ قتلته أيها التعس ؟

قال العامل فى انهيار :

ـ لم أكن أقصد هذا .. لقد دفعته فى قوة ، فارتطم بالعامود الحجرى ، الذى يحمل القنينة النحاسية ، وسقط صريعًا ، وانقلبت القنينة ورمادها فوقه ، و ...

قاطعه (خالد) هلعًا :

ـ انقلبت .

ثم أسرع يرتدى حذاءه الطويل ، مستطردًا :

ـ هيا يا رجل .. سنذهب لنرى ماذا حدث .. هيا .. ربما لم يمت زميلك كما تتصوَّر .

أسرعنا مع العامل إلى المقبرة ، التى بدت أكثر إثارة للخوف والرهبة ، على ضوء القمر ، ولكن سيِّدى (خالد) لم يتردَّد فى الزحف داخلها ، فلحقت به على الفور ، ولم أكد أدخل إلى المقبرة ، التى بدت أصغر مما كنت أتصوَّر ، حتى هبط رعب غامض فى قلبى ..

رعب لم أدر له سببا ، فقد كانت مجرَّد حجرة مربَّعة صغيرة ، ازدانت كل جدرانها بالرسوم والنقوش ، يتوسّطها عمود صخرى صغير ، سقطت أسفله قنينة نحاسية نصف كروية ، فوق كمية من الرماد ..

ولم يكن هناك أثر للعامل القتيل ..

وفى ذهول هتف العامل الآخر :

ـ ولكننى تركته هنا .

أدار (خالد) المصباح داخل المقبرة الصغيرة فى بطء ، ثم قال :

ـــ من الواضح أنه لم يمت .. ربما فقد وعيه بضع لحظات ، ثم استعاده فزحف خارج المقبرة ، وعاد إلى خيمة العمال .

تنهّد العامل فى ارتياح ، وقال :

ـــ حمدًا لله .. لم أكن لأسامح نفسى أبدًا ، لو كان قد مات .

انحنى (خالد) يرفع القنينة النحاسية ، وهو يقول :

ـــ ولكنكما تسبَّبتما فى سقوط القنينة و ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يصوِّب ضوء مصباحه على كومة الرماد الصغيرة ، المستقرَّة أسفل القنينة ، وسمعته يقول فى دهشة :

ـــ عجبًا !..

سألته فى اهتمام :

ـــ ماذا حدث يا سيِّدى ؟

أجابنى فى تردد :

ـــ هذا الرماد .

ألقيت نظرة على الرماد ، وعدت أسأله :

ـــ ماذا عنه يا سيِّدى ؟

تردَّد لحظة أخرى ، ثم أجاب فى حسم :

ـــ إنه ليس نفس الرماد ، الذى كان داخل القنينة يا (عثمان) .. ليس نفس الرماد حتمًا .

وهوى قلبى بين ضلوعى ..

° ° °



٤ — امرأة ..

لم يكن من المعتاد أبدًا أن يتناول سيِّدى (خالد) الشاى ، بعد غروب الشمس ، إلا أنه تناول فى تلك الليلة كوبين كبيرين منه ، أعددتهما له فى التاسعة مساءً ، وهو يجلس أمام الخيمة ، غارقًا فى تفكير عميق ، ومتطلعًا إلى القمر ..

وفى خفوت ، اتجهت إليه أسأله :

— ما الذى يدعوك إلى القول بأن هذا الرماد يختلف يا سيِّدى ؟.. الرماد كله يتشابه .

هزَّ رأسه نفيًا ، وقال :

— لا يا (عثمان) .. الرماد الذى رأيته فى الصباح ، داخل القنينة النحاسية ، لم يكن أبدًا رمادًا عاديًا .

سألته فى حيرة :

— ماذا كان إذن ؟

صمت لحظات ، وكأنما يبحث عن اللفظ المناسب ، قبل أن يقول :

— عندما سقط ضوء مصباحى على ذلك الرماد ، فى الصباح ، بدا لى الرماد وكأنما هو نار متوهجة ، أو جمر ملتهب ، تتراقص فوقه ألسنة اللهب ، حتى لقد أدنيت يدى منه فى حذر ، خشية أن تلفحنى نيرانه ، أما الرماد الذى وجدناه منذ ساعة ، على أرضية المقبرة ، فهو مجرَّد رماد عادى .

انقبض قلبى لذلك الوصف ، وتمنيت فى أعماق لو رحلنا عن هذا المكان ، وتركنا تلك المقبرة اللعينة ، إلا أننى لم أجرؤ على الإفصاح برأيى

هذا لسيِّدى (خالد) ، وآثرت الصمت ، الذى لم يمنع قلبى من الارتجاف بين ضلوعى ، حتى أشرقت شمس الصباح ..

وكعادته ، كان سيِّدى (خالد) أوَّل من استيقظ ، وغادر خيمته نشيطًا حليقًا ، ينافس الصباح بهاءً وإشراقًا ، ثم تبعه (سمبسون) ، الذى بادره قائلًا :

— صباح الخير يا (خالد) .. أما زلت تفكِّر فى عنقائك ؟

ابتسم (خالد) ابتسامة هادئة ، ثم قصَّ عليه كل ما كان من أمر حارسى المقبرة أمس ، فانعقد حاجبا (سمبسون) فى غضب ، وقال :

— ما كان لك أن تتجاوز الأمر بهذه البساطة يا (خالد) .. كان ينبغى أن تعاقبهما بكل الحزم والصرامة .

قال (خالد) فى هدوء :

— لا تنس يا سيِّد (سمبسون) أن بعثتنا تضمّ خمسة عمال فحسب ، ومعاقبة عاملين منهما تعنى إغضاب أربعين فى المائة من فريق العمل .

مطَّ (سمبسون) شفتيه فى امتعاض واعتراض ، إلا أنه لم يعلن مشاعره هذه على نحو صريح . وإنما جلس مع (خالد) و (بيل) ، يتناول قهوة الصباح ، ولم يكد آخرهم ينتهى من قهوته ، حتى لمح ذلك العامل ، الذى قادنا إلى المقبرة مساء أمس ، وهو يقترب مرتبكًا ، شاحب الوجه ، فلفت نظر سيِّدى (خالد) إليه ، فاستدعاه وسأله :

— ماذا بك ؟

أجابه العامل ، فى اضطراب واضح :

— (عويس) اختفى .

سأله (خالد) :

ــ من (عويس) هذا ؟

ثم تذكّر أن (عويس) هو الحارس الثانى ، الذى أصيب أمس داخل المقبرة ، ولم نعثر عليه بعدها ، فتجاوز سؤاله فى سرعة ، وأكمل :

ــ أين اختفى ؟

هزّ العامل رأسه فى توتّر ، وقال :

ــ لا أحد يدرى .. لقد تصوَّرنا أمس أنه قد استعاد وعيه ، وعاد إلى خيمته ، ولكن زميليه فى الخيمة يؤكدان أنه لم يعد إليها ، ثم إننا لم نعثر له على أثر .

عقد (خالد) حاجبيه ، وهو يقول :

ــ ربّما خشى العقاب ، بعد أن استعاد وعيه ، ففرّ من هنا .

قال العامل :

ــ إلى أين يفرّ يا سيّدى .. إننا فى قلب الصحراء ؟

أجابه (سمبسون) فى خشونة :

ــ ربّما عاد إلى (وادى الملوك ..) .. إنه يعرف الطريق حتمًا .

لم يبد أن هذا التفسير قد أقنع العامل ، إلا أنه غمغم :

ــ ربّما .

وابتعد عن الخيمة يجرّ ساقيه جرًا ، فالتفت (بيل) إلى (سمبسون) ، وسأله :

ــ أتعتقد أنه قد فرّ حقًا .

أجابه (سمبسون) فى خشونة :

ــ ألديك تفسير آخر ؟

هزّ (بيل) كتفيه ، وقال :

ــ لا .. لا أعتقد هذا .

نهض (خالد) عند هذه النقطة ، وأزاح أستار الخيمة ، وهو يقول :

ــ فليكن .. إننا لن نضيع اليوم فى مناقشة أمر (عامل) هارب ، فعلينا أن نفحص المقبرة ، و ...

بتر عبارته بشهقة قوية ، جعلتنا نقفز جميعًا من أماكننا ، ونهتف :

ــ ماذا حدث ؟

أشار بسبَّابته إلى تلال الرمال البعيدة ، قائلًا :

ــ انظروا .. هناك .

انتقلت أبصارنا جميعًا إلى حيث أشار ، وبدا لنا جسد بشرى يترنّح فوق الرمال ، محاولًا الوصول إلى معسكرنا ، ولم نكد نتبيّن طبيعة هذا الجسد ، حتى كان (خالد) يهتف :

ــ إنها امرأة .

أسرع إلى سيارة (الجيب) ، وقفز داخلها ، فلحقت به مع (بيل) ، وهو يدير محرّكها ، وقال (بيل) فى حيرة :

ــ ما الذى جاء بها إلى هنا ؟

انطلق (خالد) بالسيارة ، وهو يقول :

ــ من يدرى ؟

رأيت من بعيد جسد تلك المرأة ، وهى تتوقّف متطلّعة إلينا ، ثم ترفع يدها ملوّحة ، وتسقط أرضًا بلا حراك ، فزاد (خالد) من سرعة السيارة ، التى أثارت خلفها عاصفة من الرمال ، وهو يقول :



ــ يا إلهى !.. ما الذى أتى بها إلى هنا حقًّا ؟

بلغنا موضع المرأة فى دقيقتين فحسب ، وأوقف (خالد) سيارته إلى جوارها ، ثم قفز من السيارة ، وهبط يفحص المرأة ، ولم يكد يدير وجهها إليه ، حتى هتف (بيل) :

ــ يا رب السموات !!

أما أنا ، فقد انفغر فاهى فى ذهول وانبهار ، وأنا أتطلّع إليها ..

لم تكن مجرَّد إمرأة ..

كانت أروع كائن حى وقعت عليه عيناى ، منذ مولدى ..

امرأة فاتنة ، بكل ما يمكن أن تحمله الكلمة من معان ، لها وجه لم أر أجمل منه ، ولا أكثر سحرًا من ملاحته ، تزينه شفتان كثمرة ناضجة من ثمار الجنة ، ويكلله تاج منهمر من شعر أحمر نارى برّاق ، عكس بهاءه على بشرتها الوردية ، فامتزجا فى لوحة من أعظم لوحات الخالق (عزّ وجلّ) .

وكانت فاقدة الوعى ، ترتدى جلبابًا قديمًا متهالكًا ، تناقض بشدة مع بشرتها وجمالها ، وأوحى إلينا بأنها قد لاقت الأمرّين ، حتى بلغت موضعنا هذا ، ولم تكن هناك قطرة عرق واحدة على جسدها ، مما يجزم بأنها لم تتناول قطرة واحدة من الماء منذ زمن طويل ..

وعلى الرغم من أننى لم أر سيِّدى (خالد) يبدى اهتمامًا زائدًا بامرأة قط ، إلا أنه بدا لى ــ فى هذه اللحظة ــ مبهورًا ، مأخوذًا ، مسحورًا بتلك الفتنة الطاغية ، التى ترقد أمامه ، فوق رمال الصحراء ، حتى أنه بقى لحظات يتطلّع إليها مشدوهًا ، قبل أن ينحنى ليحملها بين ذراعيه ، ويقول فى حسم :

ــ إنها تحتاج إلى رعاية طبية عاجلة .

أرقدها فى رفق على المقعد الخلفى للسيارة ، وانطلقنا عائدين بها إلى المعسكر ، ولم تكد أبصار العمال والسيِّد (سمبسون) تقع عليها ، حتى انتقل انبهارنا إليهم ، وبخاصة إلى السيِّد (سمبسون) ، الذى هتف متخليًا عن وقاره :

ــ ربّاه !!.. هل تنجب الصحراء كل هذا الجمال ؟

حملناها إلى خيمة سيِّدى (خالد) ، ورحنا نرطب شفتيها بالماء ، ونبلّل وجهها بمنشفة معطّرة ، حتى ندّت من بين شفتيها الفاتنتين تأوهات خافتة ، فتحت بعدها عينيها ، وتطلّعت إلى وجوهنا فى خوف ، قبل أن تهتف فى وهن :

ــ من أنتم ؟.. أين أنا ؟

أسرع (بيل) يجيبها :

— إننا بعثة آثار (أنجلو — مصرية) ، وأنا (بيل) ، وزميلى هذا (سمبسون) ، ونحن بريطانيان .. أما هذا فهو مصرى ، يدعى (خالد) .

اعتدلت جالسة ، وهى تقول فى ارتياح :

— إذن فقد نجوت .. حمدًا لله .

بدت لى لهجتها ، وهى تقول عبارتها الأخيرة ، مختلفة عن سؤالها الأول ، الذى بدا انجليزيًا خالصًا ، ولكن هذا لم يلبث أن بدا لى طبيعيًا ، عندما سألها (سمبسون) :

— أبريطانية أنت ؟

فهزت رأسها ، مجيبة :

— لا .. بل أمريكية .

سألها (خالد) فى اهتمام :

— كيف وصلت إلى هنا ؟

روت لنا قصة مقتضبة ، علمنا منها أنها سائحة أمريكية ، أتت من بلادها لزيارة (وادى الملوك) ، ومشاهدة الآثار المصرية القديمة ، ثم اختطفها أحد البدو ، وحملها إلى مخيم قبيلته ، ثم أنهت قصتها بفيض من الحزن ، وهى تقول :

— لقد نجحت فى الفرار منهم بمعجزة ، ثم انتابنى الرعب ، وأنا أعبر صحراء لا نهاية لها ، ونال منى التعب والخوف مناهما ، حتى أننى لم أكد ألمح سيارتكم ، حتى سقطت فاقدة الوعى ، من شدة الانفعال واللهفة .

ربت سيدى (خالد) على كتفها فى رفق ، وقال فى لهجة تفيض حنانًا :

— لقد عانيت الكثير ، وأظنك الآن بحاجة إلى الاغتسال ، وتناول وجبة دسمة ، ثم النوم لفترة طويلة .. سنذهب نحن لإنهاء عملنا ، وسيعد لك (عثمان) كل ما تحتاجينه .

تطلعت إليه لحظات فى صمت ، كما لو أنها تقرأ عينيه ، وتسبر أغواره ، ثم لم تلبث أن أزاحت خصلة ناعمة طويلة من شعرها النارى ، وهى تبتسم قائلة :

— أشكرك يا سيد (خالد) .. أشكرك كثيرًا .

منحها ابتسامة رقيقة ، ثم غادر الخيمة مع رفيقيه ، وبقيت أنا لأعد لها بعض الماء الساخن ، ووجبة دسمة ، ثم أحضرت لها جلبابًا نظيفًا ، وتركتها بالخيمة ، ولحقت بسيدى ، الذى زحف مع زميليه إلى داخل المقبرة ، وراح ثلاثتهم ينقلون النقوش عن الجدران ، ويترجمونها ، وعندما لحقت بهم إلى داخل المقبرة ، كان (سمبسون) يشير إلى أحد النقوش ، قائلًا :

— هراء .. كل هذا مجرد هراء .. لن أصدق أبدًا وجود مثل هذا الطائر الخرافى .. حتى الرماد يبدو لى أشبه برماد عشرات السجائر .

قال (خالد) فى حسم :

— إنه ليس نفس الرماد .

هتف (سمبسون) فى حدة :

— أين ذهب الرماد الآخر إذن ؟ ومن أين جاء هذا الرماد ؟

قدمت لهم أكواب الشاى ، وانسحبت خارجًا ، وتركتهم يناقشون هذا الأمر ، الذى لا أفهم الكثير من تفاصيله ، ولحقت بالعمال الأربعة ، الذين دارت بينهم مناقشة حامية أخرى ، حول اختفاء زميلهم الخامس ، ولقد بدت لى تلك المناقشة سخيفة ، حتى سمعت أحدهم يقول ، فى صوت امتزجت ارتجافته برنة خوف :

— صدقونى .. هذه المقبرة ملعونة .. لقد رأيت بنفسى ذلك الطائر الرهيب ، عندما خرج منها ليلة أمس .

التفتُّ إليه غاضبًا ، وصحت فى وجهه :

ــ ويلك يا رجل !! أتحاول إفساد البعثة بأكاذيبك هذه ، التى تبثُّ الرعب فى قلوب زملائك ؟

تراجع الرجل فى خوف ، وقال مذعورًا :

ــ ولكن هذا ما حدث .. أقسم لك إننى رأيت الطائر الملعون .

أمسكت كتفه فى قوة ، وأنا أقول :

ــ صف لى ما رأيت .

راح يلوِّح بيديه فى سرعة وخوف ، وهو يقول :

ــ لقد وجدت المقبرة خالية ، بلا حراسة ، فاتجهت إليها ، بحثًا عن زميلينا ، اللذين كلفتموهما حراستها ، ولم أكد أقترب منها حتى سمعت داخلها خفقات أجنحة طائر ضخم ، أعقبته صرخة طائر ، كتمتها جدران المقبرة ، فتراجعت فى رعب ، وهنا رأيت لسانًا من اللهب ، يخرج من تلك الثغرة ، أسفل المدخل ، ثم لم يلبث أن تحوَّل إلى طائر ضخم ، فى حجم رجل بالغ ، يمسك بمخالبه شيئًا ما ، وقبل أن أصرخ ، انطلق الطائر مبتعدًا ، كلسان من نار ، فعدت مهرولًا إلى خيمتى ، ولم أفارقها حتى مطلع الشمس .

لم يكن من السهل أن يبتكر ذلك العامل البسيط قصة كهذه ، يعجز عنها خيال رجل مثقَّف ؛ لذا فقد كانت لكلماته مصداقية عجيبة ، تركت أثرها فى عيون زملائه الثلاثة ، الذين تراجعوا فى رعب ، وقال أحدهم مرتجفًا :

ــ نريد أن نرحل .

لم أحر جوابًا ، وأنا أشاهد ذلك الرعب الهائل ، الذى ملك قلوبهم ، فتمتمت مستسلمًا :

ــ سأعرض الأمر على سيِّدى (خالد) .

عدت إلى المقبرة ، وشرحت الأمر لسيِّدى (خالد) وزميليه ، فصحبانى إلى حيث العمال الأربعة ، واستمعوا بأنفسهم إلى القصة مرة ثانية ، ثم هزَّ (خالد) رأسه فى هدوء ، وقال :

ــ دعونا نفترض أن القصة حقيقية .. ما الذى يمكن أن يخيفنا إذن ؟ لقد غادر الطائر المخيف مقبرته ، ورحل ، ولم تعد هناك مشكلة .

قال أحد العمال فى خوف :

ــ وماذا لو عاد ؟

أجابه (سمبسون) فى خشونة :

ــ لن يعود .

تطلَّع العمال الأربعة إليه فى رهبة ، فلقد كان حديثه الدائم بالانجليزية ، ينسيهم أنه يجيد العربية مع (بيل) ، وأنهما يستطيعان فهمها جيِّدًا ، ولقد أردف (سمبسون) بصرامته المعهودة :

ــ أما أنا ، فلن أسمح بترديد تلك الخرافات هنا .. هل سمعتم ؟

أومئوا برءوسهم فى استسلام ، فأضاف :

ــ هيا .. سنعود إلى العمل .

عادوا يحفرون الرمال ، ويرفعونها عن باقى المقبرة ، وهم يقدمون رِجلًا ، ويؤخرون أخرى ، فى حين التفت (بيل) إلى (خالد) وسأله :

ــ هل تبدو لك قصته حقيقية ؟

أجابه (خالد) فى هدوء :

ــ هل يبدو لك خياله من النوع القادر على ابتكارها ؟

كادا يناقشان هذا الأمر ، لولا أن قاطعهما (سمبسون) ، وهو يقول فى انبهار واضح :

ـــ رباه !.. هل تشرق الشمس مرتين ؟

التفتنا جميعًا إلى حيث أشار ، وانطلقت من حناجرنا شهقة واحدة .. فهناك ، أمام خيمة سيِّدى (خالد) ، كانت تقف الشمس الثانية ..

كانت المرأة واقفة هناك ، وقد تركت شعرها الأحمر النارى ينسدل على كتفيها ، فوق ذلك الجلباب الأبيض النظيف ، الذى استبدلته بذلك الرث ، الذى كانت ترتديه من قبل ، وبدت أشدّ ما يكون بهاءً وحسنًا ..

ودون أن ندرى أسرعنا جميعًا إليها ، وسألها (بيل) فى لهفة :

ـــ هل نمت جيدًا ؟

أدهشنا أن هزّت رأسها نفيًا ، وهى تقول :

ـــ لا .. لم أنم جيِّدًا ، بسبب ذلك الطائر .

بُهتنا لجوابها ، وشملنا صمت رهيب ، قطعه (خالد) ، وهو يسألها فى قلق :

ـــ أى طائر ؟

رفعت يديها إلى أعلى ، وقالت :

ـــ ذلك الذى ظلّ يخفق بجناحيه فوق خيمتك طوال الوقت .

لم تكد تنطقها ، حتى قفزت كلمة واحدة إلى أذهاننا جميعًا .. (العنقاء) ..

* * *

٥ ـــ أيام الخوف ..

اجتمع الرجال الثلاثة مع المرأة ، التى علمنا أن اسمها هو (لورا) ، فى خيمة سيِّدى (خالد) ، ورحت أنا أعدّ طعام الغذاء كالمعتاد ، وعندما حملته إلى الخيمة ، كانت (لورا) تقول لـ(سمبسون) فى عصبية :

ـــ ما معنى هذا السؤال السخيف ، الذى ألقيته على مسامعى سبع مرات ، حتى هذه اللحظة ، يا مستر (سمبسون) ؟.. بالطبع أنا واثقة من سماعى صوت ضربات أجنحة الطائر .

عقد (سمبسون) حاجبيه الكثين ، وهو يقول :

ـــ لو أننى أستطيع إلقائه على مسامعك ألف مرة ، فى كل دقيقة ، لفعلت يا سيِّدتى ، فجوابك هذا قد يقلب معتقداتى رأسًا على عقب .

هتفت به :

ـــ ولكننى سئمته .

رفع (خالد) يده فى حسم ، وقال :

ـــ حسنًا يا (لورا) .. لن يسألك أحدنا السؤال نفسه مرة أخرى ، بل لن نتحدّث حتى فى الأمر أمامك .

قال (سمبسون) فى حدة :

ـــ ولكن ..

قاطعه (خالد) قبل أن يواصل حديثه :

ـــ قلت إننا لم نفعل .

ظهر الغضب على وجه (سمبسون) ، إلا أنه لم يعارض موقف

(خالد) ، وإنما جلس يتناول غذائه فى صمت ، فى حين تبادل زميلاه الحديث مع (لورا) فى أثناء ذلك ..

كان حديثها عذبًا ، جذابًا ، ولقد لاحظت أنها تولى بعض الاهتمام لسيِّدى (خالد) ، الذى كان أكثر الثلاثة وسامة ورقَّة ، كما كان حديثه إليها دائمًا مغلّفًا بحنان جم ، ينبع من قلبه ، ومن طبيعته الشرقية الأصيلة ..

ولم يكد ينتهى تناول الطعام ، حتى نهض (سيمبسون) ، وقال فى حدة :

ــ سأعود إلى العمل .

ثم اندفع مغادرًا الحجرة ، فهمست (لورا) :

ــ زميلكما هذا شديد العصبية .. أليس كذلك ؟

أجابها (خالد) مبتسمًا :

ــ ولكنه طيب القلب .

ارتسمت على شفتيها أكثر ابتسامات الأرض عذوبه ، وهى تقول لـ(خالد) :

ــ ليس وحده .

ارتبك لابتسامتها ، فنهض من مقعده بدوره ، وغمغم :

ــ وأظنه على حق ، فمن الضرورى أن نواصل عملنا .. هل نذهب يا (بيل) ؟

ابتسم (بيل) ، وهو يسترخى فى مقعده ، وقال :

ــ لا .. سأبقى بعض الوقت .

رمقه (خالد) بنظرة ضيق ، حملت شيئًا من الغيرة ، ثم حمل مصباحه ، وغادر الخيمة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وهنا التفت (بيل) إلى (لورا) ، وقال بلهجة ذات مغزى خاص :

ــ لدىَّ زجاجة من خمر معتّق فى خيمتى ، ما رأيك لو حملناها مع كأسين إلى تبة بعيدة ، واحتسيناها معًا ، تحت ضوء القمر ؟

ابتسمت (لورا) وقالت :

ــ لم يحن وقت هذا بعد .

سألها فى شغف :

ــ ومتى يحين ؟

ضحكت قائلة :

ــ هذا يتوقَّف على الظروف .

نهض ليلحق بـ(خالد) ، وهو يلوِّح بيده ، قائلًا :

ــ أخبرينى ، عندما يحين الوقت .

أجابته فى مرح :

ــ سأفعل .

ولم يكد يغادر الخيمة بدوره ، حتى التفتت إلىَّ وقالت :

ــ معذرة يا (عثمان) .. أريد النوم بعض الوقت .

اعتذرت لها ، وغادرت الخيمة على الفور ، وتركتها تنعم بنوم عميق ، وقضيت أنا جلَّ وقتى فى خدمة سيِّدى وزميليه ، وسط مناقشاتهم التى لا تنتهى ، حول المقبرة والنقوش ، ثم أشار سيِّدى إلى ضرورة إيجاد ترتيب جديد للنوم ، بعد انضمام (لورا) إلينا ، فاقترح (بيل) نقل العمال الأربعة إلى خيمة واحدة ، ومنح الخيمة الثانية لـ(لورا) ، ولكن سيِّدى (خالد) طلب أن تبقى (لورا) فى خيمته ، بعد أن ألفتها ، على أن ينتقل هو إلى خيمة العمال الثانية ..

وهذا ما كان ..



وفى تلك الليلة أوى الجميع إلى فراشهم بعد ارتفاع القمر فى السماء .

ولم يبق سوى (عويضة) لحراسة المكان ، فى حين ساد صمت تام وهدوء نسبى ..

وفجأة تبدّد هذا السكون ، مع صرخة رهيبة ..

صرخة طائر هائل ، مصحوبة بخفقان أجنحة ضخمة ..

الجميع هذه المرة سمعوا الصرخة وخفقات الأجنحة ، فهبّ كل منهم من مرقده ، واندفعنا جميعًا خارج خيامنا ، وقد أمسك (سمبسون) و (بيل) مسدسيهما ، وهتف سيّدى (خالد) :

ـ من أين أتى الصوت ؟

وبخلاف سؤاله ، لم يكن هناك صوت آخر يتردّد فى المكان ..

لقد انطلقت الصرخة وتلاشت ، مخلفة سكونًا أكثر رهبة ، وأكثر إثارة للخوف ..

وأدار الجميع عيونهم فى المكان فى توتر ، ثم هتف (خالد) :

ـ (لورا) .. أين (لورا) ؟

لم يكد هتافه يتلاشى ، حتى ظهرت (لورا) أمام خيمتها ، وهى ترتجف ، وهمست :

ـ (خالد) .. إننى خائفة يا (خالد) .

اتجه إليها (خالد) .. ووقف أمامها قائلًا :

ـ اطمئنى .

ولكنها ألقت رأسها على صدره بحركة مباغتة ، وأحاطته بذراعيها مكرّرة :

— إننى خائفة .. خائفة جدًا .

ظهر الحرج على وجه سيّدى ، وتعلّقت به كل الأنظار ، ورأيت أنا شياطين الغيرة تطلّ واضحة ، من عين (سمســون) و (بيل) ، وتوجّست من ذلك خيفة ، ولكن أحد العمال بدّد هذا الجو المتوتر بغتة ، عندما هتف :

— أين (عويضة) ؟

انتبهنا جميعًا — فى هذه اللحظة فقط ، إلى اختفاء الحارس ، فأزاح (خالد) ذراعى (لورا) من حول وسطه فى رفق ، واندفع إلى حيث كان (عويضة) يجلس ، ولم يكد يبلغ موضعه ، حتى انطلقت من صدره شهقة ، وتراجع إلى الخلف فى حدة ، وكان فى هذا ما يكفى لنهرع كلنا إليه ، وعندما بلغنا موضعه ، ورأينا ما رآه ، كادت تلك الشهقة تنطلق من حناجرنا جميعًا ..

فهناك ، كانت بندقية (عويضة) تستقرّ على الأرض ، وإلى جوارها جلباب هذا الأخير ، وفوق الجلباب كومة ..

كومة من الرماد ..

° ° °

لم يشهد معسكرنا رعبًا ، كالذى شهده فى تلك الليلة ، ونحن نبحث عن (عويضة) فى كل مكان ، دون جدوى ، وبعدها جلس الرجال الثلاثة مع (لورا) ، فى خيمة سيّدى (خالد) ، التى تركها للمرأة ، وبدأ (خالد) الحديث بقوله :

— أظن هذا يتفق ما كل ما قرأناه ، على المقبرة .. إننى أذكره بالحرف الواحد :

« عندما تفيض الروح عبر الرماد ، يستيقظ طائر النار من رماده ، ويبدأ العذاب من النار إلى النار .. فى كل يوم عذاب جديد ، ورماد جديد .. »

هتفت (لورا) :

— لا تكمل يا (خالد) .. أرجوك .. هذا يُفزعنى .

ربّت على كتفها فى حنان ، فالتقطت كفه بأناملها ، وضغطتها فى حب واضح ، أعاد نظرة الغيرة إلى عينى (سمبسون) و (بيل) ، قبل أن يسحب (خالد) كفه من بين أصابعها ، ويتنحنح فى حرج ، مكملًا :

— دعونا نفسّر هذا أيها السادة .. واسمحوا لى بوضع تفسير خاص ، يتفق مع الأحداث ، فالأساطير القديمة تحدّثت عن (العنقاء) ، ذلك الطائر النارى الخرافى ، الذى ينبت من رماده ، ولكنها لم تذكر أبدًا كيف ينهض منه ، ولكن إذا ما نظرنا إلى عبارة « عندما تفيض الروح عبر الرماد ، يستيقظ طائر النار من رماده » ، فقد يضع أمامنا هذا تفسيرًا واضحًا ، ألا وهو أن (العنقاء) تحتاج إلى روح تُهدر أمامها ، لتنهض من رمادها .

هتفت (لورا) :

— (خالد) .. هذا رهيب !! رهيب !!

منحها ابتسامة حانية ، ثم عاد يواصل فى صلابة :

— وفى الليلة السابقة تحقّق الشرط ، عندما قتل العامل زميله داخل المقبرة ، وسقط رماد (العنقاء) فوق جثته .. عندئذ عبرت روحه رمادها ، فنهضت من رقادها الطويل ، والتهمته ، فحوّلته إلى رماد بدوره ، وهذا يفسّر اختفاء رمادها ، ووجود ذلك الرماد بدلًا منه .

سأله (بيل) فى توتر :

ــ وأين ذهبت ثيابه ؟

ــ أنسيت قول العامل الآخر ، فى أن ذلك الطائر ، الذى خرج من المقبرة ، كان يحمل فى مخليه شيئًا ما ؟.. لا ريب أن (العنقاء) قد حملت ثياب العامل ، وهى تظنها طعامًا ، يكفى لإشباعها ، بعد قرون من النوم ، ولكنها لم تلبث أن أدركت عدم جدواها ، فتخلّصت منها ، وبدأت تبحث عن غذائها الحقيقى .

صمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ــ البشر .

أطلقت (لورا) شهقة رعب ، وغمغم (سمبسون) :

ــ يا إلٰهى !

أما (بيل) ، فقد اندفع يقول :

ــ أتعنى أن ذلك الرماد ، الذى عثرنا عليه الليلة هو ... ؟

قاطعه (خالد) :

ــ نعم يا (بيل) .. إنه كل ما تبقّى من جسد (عويضة) .. هذا هو ما تقول الكلمات داخل المقبرة : « فى كل يوم عذاب جديد ، ورماد جديد » .. هذ يعنى أن (العنقاء) تحتاج إلى ضحية جديدة فى كل يوم .. ربّما لتبقى هى حية ، وهذه الضحية تتحوّل بدورها إلى رماد .. وهكذا .

ران صمت رهيب داخل الخيمة ، بعد أن انتهى (خالد) من كلماته الأخيرة ، ثم قطع (سمبسون) هذا الصمت ، وهو يقول فى غلظة :

ــ هراء .

ثم انتزع مسدّسه من جرابه ، وأضاف فى حدة :

ــ فلتأتِ هذه (العنقاء) إلى هنا ، حتى لو كانت أضخم من (الرخ) نفسه(*) ، ولكنها لن تمنعنى من استكمال فحص هذه المقبرة ، وتسجيل عثورنا عليها ، وأقسم لو ظهرت فى معسكرنا مرة أخرى ، لأضعنها فى قفص من الخشب ، لأسخر منها كل صباح ومساء .

قالها واندفع مغادرًا المكان كعادته ، ولم يشيّعه أحدنا بحرف واحد ، إذ كنا نعلم جميعًا أن أمامنا أيامًا لن ننساها ..

أيامًا من الرعب .

° ° °

(*) الرخ = طائر خرافى ، ورد ذكره فى الأساطير القديمة ، وفى روايات ألف ليلة وليلة ، وتقول عنه تلك الروايات إنه هائل الحجم ، بالغ الضخامة ، وتنسب إليه ، فى واحدة من قصص (السندباد البحرى) ، قدرته على رفع وحيد قرن ضخم بمخلبيه ، والطيران به عاليًا .

٦ ـــ ليلة الرعب ..

مضى اليوم الثانى عسيرًا على كل الأطراف ، فقد رفض العمال الثلاثة الباقون العمل ، وحاول سيِّدى (خالد) وزميلاه إقناعهم بمختلف الوسائل ، إلى أن هدَّد (سمبسون) بإطلاق النار على من يحاول الفرار منهم ، فرفع أحدهم بندقيته فى وجه الانجليزى ، وكادت تحدث مجزرة ، لولا أن تدخل (خالد) فى الأمر ، وأعاد الهدوء إلى الموقف بكلماته الرصينة ، وأسلوبه الهادئ ، عاونه على هذا حب العمال له ، ودماثة خلقه المعهودة ..

وعاد العمال إلى العمل ، فى جو من التوتر ، لم أشهد له مثيلًا من قبل ، وليت الأمر اقتصر على هذا ، فقد انضمَّت (لورا) إلى فريق الرجال ، وراحت تغمر (خالد) بابتساماتها وعطفها ، ولمساتها الحانية ، مما ملأ قلبى زميليه بالغيرة والحقد ، اللذين دفعا (سمبسون) إلى أن يهتف فجأة :

ـــ كفى .. إننا فى موقع عمل ، ولسنا فى ملهى ليلى .

عقد (خالد) حاجبيه فى غضب ، وهو يقول :

ـــ ماذا تعنى بقولك هذا ؟

لوَّح (سمبسون) بذراعه كلها ، هاتفًا :

ـــ لست أريد تلك المرأة العابثة هنا ، فلتقبع فى خيمتها .

هبَّ (خالد) فى صرامة ، وهو يقول :

ـــ لست أسمح لك بأن تصفها بالمرأة العابثة .

صاح (سمبسون) :

ـــ سأنعتها بما يحلو لى أيها المصرى .

ضمَّ (خالد) قبضته ، وهو يقول فى غضب :

ـــ سأمنعك بالقوة .

اشتبكا فجأة فى مشاجرة بالقبضات العارية ، فاندفعت أنا و (بيل) نحاول منعهما ، و (سمبسون) يواصل صراخه :

ـــ لا أريدها هنا .

أسرعت (لورا) إلى (خالد) ، وتحسَّست فى ذعر خيط الدم ، الذى سال من طرف شفتيه ، وهتفت :

ـــ (خالد) .. أنت مصاب .

مسح خيط الدم بأصابعه ، وهو يقول :

ـــ إنها إصابة بسيطة .

تجاهلت (سمبسون) و (بيل) تمامًا ، وهى تتحسَّس وجهه فى حنان ، قائلة :

ـــ لا .. إنها تحتاج إلى عناية طبية .. هيا .. سنعود إلى الخيمة لإسعافك .

حاول أن يعترض ، إلا أنه لم يملك سوى الاستسلام إزاء إصرارها ، فسار معها إلى الخيمة ، فى حين زمجر (سمبسون) قائلًا :

هذه المرأة هىَ اللعنة الحقيقية للمكان .. ستحطِّم بعثتنا كلها .

لم أشأ الاستماع إلى المزيد ، فأسرعت أغادر المكان ، متجهًا إلى خيمة سيِّدى ، وقبل أن ألجها ، سمعت (خالد) يقول فى حنان :

ـــ (لورا) .. صحيح أننى لم ألتق بك إلا منذ يومين ، إلا أننى أشعر وكأننا يعرف بعضنا البعض من سنوات .

رأيتها ترفع وجهها إليه ، وتهمس فى حب :

ـــ بل قل منذ قرون .

وضع كفيه على كتفيها ، وهو يقول :



ـــ (لورا) .. أنا أحبك .

ابتهج قلبى ، عندما أجابته :

ـــ وأنا أيضًا أحبك يا (خالد) .. أحبك أكثر مما تتصوَّر .

لمحته يدنى شفتيه من شفتيها ، وكدت أبتعد خجلًا ، إلا أنها أبعدت شفتيها عن وجهه فى حركة حادة ، وهى تقول :

ـــ لا يا (خالد) .. لا ..

تراجع فى دهشة ، ثم سألها فى حنان :

ـــ معذرة .. نسيت أن تقاليدنا تمنعنى من هذا ، قبل زواجنا .. لقد أسكرتنى فتنتك ، فنسيت هذا .

ثم أضاف ، وهو يضمّ كفها إلى صدره :

ـــ أتتزوجيننى يا (لورا) ؟

قاومت دموعها فى شدة ، وهى تقول :

ـــ ليس الآن يا (خالد) .. ليس الآن .

سألها وقد صدمه جوابها :

ـــ لماذا يا (لورا) ؟

أشاحت بوجهها عنه ، وأخفته بين راحتيها ، وبدا صوتها منتحبًا ، وهى تقول :

ـــ انصرف يا (خالد) .. انصرف أرجوك .. انصرف قبل أن أبكى .

نهض حائرًا ، وغادر الخيمة فى حزن ، ولم يكد يلتقى بى خارجها ، حتى سألنى :

ـــ هل استمعت إلى حديثنا ؟

شحب وجهى ، وارتجفت أطرافى ، وأنا أقول :

ـــ لم أكن أقصد هذا يا سيِّدى .. أقسم لك أن ...

لم يبال باعتذارى ، وإنما سألنى فى حيرة :

ـــ لماذا رفضت زواجى منها ؟

تردَّدت لحظة ، ثم أجبته :

ـــ لنفس السبب ، الذى رفضت من أجله قبلتك يا سيِّدى ، فصحيح أن عقيدتنا تمنعك من تقبيل امرأة غير زوجك ، ولكن تقاليدها الأمريكية لا تحمل المنطق نفسه ، لذا فهناك تفسير آخر لما فعلت

سألنى فى لهفة :

ــ ما هو ؟

أجبته فى سرعة هذه المرة :

ــ أنها متزوِّجة بالفعل يا سيِّدى .

اتسعت عيناه فى هلع ، وانقلبت ملامحه على نحو مخيف ، جعلنى أندم على نطقى الكلمة ، ثم لم يلبث أن غمغم فى مرارة :

ــ متزوِّجة ؟!

حاولت أن أخفف عنه وقع الصدمة ، إلا أنه رفع كفه فى وجهى ، قائلًا فى حزن :

ــ اتركنى يا (عثمان) .. اتركنى وحدى .

وقفت فى مكانى نادمًا حزينًا ، أراقبه يرحل إلى خيمته ، ويختفى داخلها ..

ولقد قضى نهاره كله لا يفارق خيمته ..

وهى أيضًا لم تفارق خيمتها ..

كان من الواضح أن كل منهما يعانى عذابًا لا قبل له به ، حتى أنهما لم يتناولا طعام الغذاء مع البريطانيين ، اللذين تناولاه فى صمت ، ثم انزوى كل منهما داخل حجرته ، وبقى العمال يتهامسون فى حذر وتوتر ، مما أقلقنى ، فقرَّرت أن أراقبهم بكل الحذر والتحفز ، خشية إقدامهم على عمل أحمق ، يفسد كل شىء ..

ومع حلول الليل ، خيَّم على المكان خوف مبهم ، حتى أن أحدًا لم يقبل القيام بدور الحراسة ، فانتزع (سمبسون) مسدَّسه ، وقال فى غضب :

ــ حسنًا أيها الجبناء .. سأحرس أنا المكان هذه الليلة ، وسأثبت لكم ضعف عقولكم .

بدا الضيق على وجه (خالد) ، فقال فى هدوء :

ــ سنتبادل الحراسة معًا و ...

قاطعه (سمبسون) فى حدة :

ــ قلت إننى سأحرس المكان وحدى .

خشى (خالد) أن يشتعل الموقف بينه وبين (سمبسون) مرة أخرى ، فقال فى ضيق :

ــ كما يحلو لك .

وعاد إلى خيمته ، فلحقت به لأعدّ له فراشه ، ولم تمض ساعات ، حتى رحنا معًا فى سبات عميق ..

وفجأة انطلقت تلك الصيحة الرهيبة ..

صرخة طائر ، تمتزج بخفقان أجنحة ضخمة ..

وقفزت من فراشى ، وكذلك فعل سيِّدى (خالد) ، وهتف فى خوف ، وهو يندفع خارج الخيمة :

ــ (لورا) ..

ولكننا لم نكد نغادر الخيمة ، حتى أدركنا على الفور من كان ضحية (العنقاء) هذه الليلة ..

كان (سمبسون) ..

مسدسه وثيابه كانت ملقاة أرضًا ، وفوقها كومة الرماد ، التى بقيت منه ..

وأطلقت (لورا) صرخة فزع ، فى حين هتف أحد العمال الثلاثة فى رعب :

— سنرحل .. سنرحل ...

اندفع مع زميليه نحو السيارة ، التى أتت بنا جميعًا إلى هذا الموقع ، فصاح بهم (خالد) :

— اهدءوا .. لا داعى للفزع .

ولكن أحدًا منهم لم يستمع إليه ، بل قفز ثلاثتهم داخل السيارة ، وأدار أحدهم محرِّكها ، و (بيل) يصرخ :

— امنعهم يا (خالد) .. إنهم سيرحلون بكل المؤن وجهاز اللاسلكى .

ثم رفع مسدسه نحو السيارة ، وراح يطلق رصاصاته فى ثورة ..

وأطلق أحد العمال الثلاثة صرخة ألم ، عندما اخترقت رصاصة (بيل) مؤخرة رأسه ، وسقط جثة هامدة ، فى حين انطلق العاملان الآخران بالسيارة ، و (خالد) يهتف بـ (بيل) :

— لا تطلق النار .. لقد أصبت خزان الوقود .

لم يكد يتمّ عبارته حتى دوى الانفجار ..

انفجر خزان وقود السيارة ، وانفجرت معه السيارة كلها ، لتطيح بجهاز اللاسلكى ، والمؤن ، وكل شىء ..

وأطلقت (لورا) صرخة رعب هائلة ، عندما رأت النيران تندلع من السيارة ، وتعلّقت بعنق (خالد) ، فربتت عليها فى رفق ، وهو يقول فى مرارة :

— لقد أضعت كل شىء يا (بيل) .. كل شىء.

صاح به (بيل) :

— ماذا كنت تنتظر منى أن أفعل ؟.. أن أتركهم يرحلون بكل شىء .

هتف (خالد) فى مرارة :

— وما الفارق ؟

ثم التفت إلى (لورا) ، وهاله ذلك الشحوب الهائل ، الذى انتابها ، فسألها فى جزع :

— هل أصابك شىء ؟

كانت تلهث فى أعياء ، وهى تجيبه :

— لا ... لاشىء .

بدت لى كمن لم يتناول طعامًا منذ شهر كامل ، فغمغمت :

— أظن السيِّدة بحاجة إلى الراحة .

نطقتها بالعربية ، وعلى الرغم من هذا فقد أومأت (لورا) برأسه إيجابا ، وكأنها فهمت ما أقول ، وقالت :

— سأعود إلى خيمتى .

اتجهت إلى خيمتها مترنحة ، وغابت داخلها ، فغمغم (خالد) :

— يا لها من ليلة !

كاد (بيل) يبكى ، وهو يقول :

— لقد فقدنا فيها (سمبسون) ، والعمال ، والسيارة ، وكل شىء .

قال (خالد) فى حزم :

— لاتقلق .. ستصل قافلة أخرى إلى هنا بعد غد ، عندما يفتقدون تلك الإشارات اللاسلكيّة ، التى اعتدنا إرسالها كل صباح ، ولدينا من المؤن فى خيمتى ما يضمن لنا البقاء ، حتى ذلك الحين .

تمتم (بيل) :

ـــ أتعشم هذا .

ران علينا الصمت لحظات ، ثم قال (بيل) :

ـــ سأذهب إلى خيمتى ، فلقد التهمت (العنقاء) فى هذه الليلة من الضحايا ما يكفيها .

اتجه إلى خيمته بخطوات بطيئة ، فقلت لسيِّدى :

ـــ يمكنك الذهاب إلى خيمتك يا سيِّدى ، فسأتولَّى أنا الحراسة .

هزَّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ لن يحتاج الأمر إلى حراسة يا (عثمان) ، فكما قال (بيل) : لقد التهمت (العنقاء) ما يكفيها هذه الليلة .

عدنا معًا إلى الخيمة ، واستلقى كل منا فى فراشه ، وخيِّل إلىَّ أن سيِّدى لن ينعم بالنوم ، بعد كل هذا ، ولكن يبدو أن ما بذله من جهد وانفعالات كان يفوق قدرته على الاحتمال ، إذ لم يلبث أن غرق فى سبات عميق ، فى حين عجزت أنا عن النوم ، فخرجت من الخيمة ، وجلست أتطلَّع إلى القمر والنجوم ، وسط ظلام ساد المكان ، بعد أن انطفأت نيران المعسكر ..

وفجأة لمحتها ..

كانت (لورا) تتسلَّل من خيمتها إلى الخيمة المجاورة ..

خيمة (بيل) .

* * *

٧ ـــ الرمـــاد ..

شعرت بضيق بالغ ، عندما رأيت (لورا) تتسلَّل إلى خيمة (بيل) ، وأحزننى أن تقابل حب سيِّدى بهذا الجحود ، فتسلَّلت بدورى إلى الخيمة ، وسمعتها تقول فى دلال :

ـــ هل يُدهشك قدومى إلى خيمتك ؟

أجابها (بيل) فى حماس :

ـــ بل يُسعدنى هذا كثيرًا يا فاتنتى .

أطلقت ضحكة عابثة ، وقالت :

ـــ سمعتك تقول أن لديك زجاجة من الخمر المعتق .. أما زلت تحتفظ بها ؟

هتف فى حماس :

ـــ هى رهن إشارتك يا أميرتى .

قالت فى دلال :

ـــ هيا بنا إذن .. سنحملها مع كأسين إلى تل قريب ، ونحتسيها فى ضوء القمر .

سمعته يهتف :

ـــ سمعًا وطاعة يا مولاتى .

غصَّ حلقى فى مرارة ، واختبأت خلف الخيمة ، وشاهدتهما يغادرانها حاملين زجاجة الخمر والكأسين ، وشعر (لورا) النارى يتراقص خلفها ، مع هبات الرياح الهادئة ، حتى اختفيا خلف تلّ قريب ، فلحقت بهما على



أطراف أصابعي ، ورأيت (بيل) يملأ أحد الكأسين ، ويقدّمها إلى (لورا) ، التي بدت شديدة الشحوب ، على نحو عجيب ، إلا أنها التقطت الكأس من يده ، ووضعتها جانبًا ، وهي تقول :

ــ دعني أسكرك أوّلًا .

ثم أحاطت عنقه بذراعيها ، وانحنت تلصق شفتيه بشفتيها ..

وفجأة وجدت جسد (بيل) يرتجف ، ثم ارتسمت في عينيه نظرة رعب هائلة ، وحاول أن يدفع (لورا) بعيدًا عنه ، إلا أنها ألصقت شفتيها بشفتيه في قوة أكثر ..

وأمام عينيَّ الذاهلتين ، المذعورتين ، استحال جسد (بيل) إلى لسان من اللهب ..

لهب أزرق عجيب ، التهم جسده كله في لحظة واحدة ، وأحاله إلى كومة من الرماد ، استقرّت فوق ثيابه ، التي سقطت أرضًا ، سليمة ، وكأنما لا تحرق تلك النيران سوى الأجساد الحية فحسب ..

وتجمّدت صرخة ، رعب في حلقي ، وأنا أحدّق في وجه (لورا) ، التي تلاشى شحوبها ، وعاد إليها تورّد وجهها ، وكأنما تمتصّ حيويتها من أرواح الآخرين ..

وفجأة رفعت (لورا) رأسها إلى أعلى ، وهزّت ذراعيها كجناحي طائر ، وهي تطلق تلك الصرخة الرهيبة ..

والعجيب أن حركة ذراعيها الخفيفة أصدرت صوتًا أشبه بخفقان أجنحة طائر ضخم ، مما أطلق تلك الصرخة الحبيسة في حلقي ، فانطلقت من بين شفتيَّ هائلة مدوية ، تموج بالرعب والفزع والخوف ..

وأدارت (لورا) عينيها إلىّ فى غضب ، وبدا لى شعرها الأحمر كسيل من الحمم ، يسيل من البركان المتقد فى عينيها ، فلم أحتمل أكثر من هذا ، ووجدت نفسى أعدو فى رعب لا مثيل له ، مبتعدًا عن التل ، والمعسكر كله ..

ولم أدر كم ظللت أركض مبتعدًا ، وأنا أصرخ فى رعب ، ولكننى انتبهت فجأة إلى أن الشمس قد أشرقت ، وإلى أن حرارتها تلهب جسدى ، فتوقفت عن الجرى ، وتلفتُّ حولى فى رعب ، ثم لم ألبث أن هويت فاقد الوعى ..

° ° °

لم أدر كم مرّ بى من وقت ، منذ فقدت الوعى ، ولكنه كان وقتًا طويلًا للغاية بالتأكيد ، إذ استعدت وعيى لأجد الظلام محيطًا بى ، والقمر يرتفع إلى كبد السماء ..

وهنا انتبهت إلى ما غاب عن ذهنى ، مع خوفى وفرارى ..

لقد تركت سيِّدى وحده هناك ..

معها ..

مع (العنقاء) ..

يا إلهى !.. من يصدِّق أن كل تلك الفتنة ، تحمل كل هذا الشر ؟

بدا لى أننى خائن حقير ، انطلق ينجو بنفسه فور شعوره بالخطر ، تاركًا سيِّده وولىّ نعمته مع شيطانة خرافية ، ستسعى حتمًا لسلبه الروح ، حتى تستعيد حيويتها وتحيا ..

وتغلّب هذا الخاطر على خوفى ، فعدت أدراجى إلى المعسكر ، ورحت أحثّ الخطا حتى أبلغه ، قبل أن تلتهم (العنقاء) سيِّدى (خالد) ، ولكننى

لم أكد أبلغ المعسكر ، حتى وجدتها بين ذراعيه ، يتطلَّع إلى وجهها فى شفقة ، ويسألها :

ــ ماذا أصابك يا حبيبتى ؟.. الشحوب يكاد يقتلك .. ماذا يمكننى أن أفعل من أجلك ؟

رأيتها تتطلَّع إلى عينيه فى حب بالغ ، وهى تقول :

ــ اتركنى يا (خالد) .. اتركنى وارحل .. أرجوك .

مسح شعرها النارى بكفه فى حنان ، وقال :

ــ كيف تطلبين منى هذا يا حبيبتى ؟.. كيف تطلبين من رجل أن ينتزع قلبه ، ويتركه فى قلب الصحراء ، ثم يرحل دونه ؟

أشاحت بوجهها عنه ، وهى تقول :

ــ أرجوك يا (خالد) .. ارحل قبل فوات الأوان .

أمسك ذقنها فى حنان ، وأدار وجهها إليه ، وقال :

ــ معذرة يا حبيبتى .. سأخالف مطلبك هذه المرة ، وسأخالف حتى نداء عقلى ، وأترك العنان لعواطفى .

لم أدر لِمَ ظللت ساكنًا ، وأنا أراقب هذا ، ولكننى لم أكد ألمحه يقترب بشفتيه من شفتيها ، حتى قفزت واقفًا ، وهممت بالصراخ محذِّرًا ، لولا أن أشاحت (لورا) بوجهها عنه ، وقالت فى ألم :

ــ لا يا (خالد) .. لا تقبِّلنى .. أرجوك .

أدهشنى موقفها ، وهىَ التى تحتاج إلى هذه القبلة أشد الاحتياج ؛ لتحيا ، ووجدت نفسى أجلس فى بطء ، وأعاود الاختفاء فى مكمنى ، وهى تتملص من ذراعيه وتقف مترنحة ، ثم تقول :

ـــ إنك لا تعرف من أنا يا (خالد) .

ـــ أجابها فى حب :

ـــ كل ما أعرفه هو أنك (لورا) ، وأننى أحبك .

هتفت فى مرارة :

ـــ لست (لورا) .. لست حتى ككل من عرفتهم من بشر .. حاول أن تفهمنى .

ولأوَّل مرة منذ رأيناها ، انهمرت الدموع من عينيها ..

وعندئذ فقط أدركت لماذا لم تبك من قبل ..

ولماذا طلبت من (خالد) يومًا مغادرتها ، قبل أن تبكى ..

لم تكن تلك الدموع ، المنهمرة من عينيها دموعًا عادية ..

كانت قطرات من اللهب ، تساقطت من عينيها ، واشتعلت بين قدميها ..

وكان المشهد رهيبًا ، حتى أن (خالد) حدّق فيه فى ذهول ، ثم رفع عينيه إلى وجه (لورا) ، التى قالت مع دموعها :

ـــ هل رأيت هذا ؟.. هل أدركت من أنا ؟.. نعم يا (خالد) .. إننى لست (لورا) .. لم أحمل هذا الاسم من قبل ، وإن حملت مئات الأسماء ، عبر عشرات القرون والأجيال .. إننى حتى لم أعد أدرى كم مرة تقمّصت فيها هيئة البشر .. إننى أنا من تُطلق عليها اسم (العنقاء) يا (خالد) .

اتسعت عيناه ذهولًا ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، وهى تتابع :

ـــ كل ما استنتجته عنى صحيح ، فلقد بقى رمادى داخل تلك المقبرة ، منذ ثلاثين قرنًا ، عندما هزمنى (خان ـــ حر) ، وصنع لى تلك

المقبرة ، لأبقى فيها ، حتى نهاية الزمان ، لولا أن عثرتم عليها ، وكان من الممكن ، على الرغم من هذا أن يبقى رمادى ساكنًا ، إلا أن مصرع العامل أيقظ الشر الكامن فى رمادى ، فعدت إلى الحياة ، على هيئة طائر ، وحملت معى جلباب العامل الصريع ، ومزّقته بعض الشىء ، ليبدو باليًا قديمًا ، ثم عدت به إليكم ، فأنقذتمونى ، وصدقتم قصتى .. وكنت أتمنى أن أبقى معكم ، ولكنها اللعنة .

تمتم لأوَّل مرة ، فى صوت متحشرج مختنق :

ـــ أية لعنة ؟

أجابته ودموعها النارية ما زالت تتساقط من عينيها :

ـــ إن حياتى ترتبط بانتزاع حياة الآخرين .. لا شأن لى بأرواحهم بالطبع ، فلا سيطرة لمخلوق عليها ، ولكننى أنتزع كل قطرة ماء فى أجسادهم ، فلا يبقى من الأجساد سوى كومة رماد ، هى كل ما يمكن أن يبقى من أى كائن حى ، لو انتزعت منه كل ما به من ماء(*) ، ولا بد لى من انتزاع ماء جسم كامل فى كل ليلة ، وإلا قضيت نحبى .. هذه هى لعنتى .

رأيته يتطلّع إليها فى إشفاق أدهشنى ، وهى تتابع :

ـــ ولكن انفعالات الليلة الماضية أفقدتنى الكثير من الماء ، وخاصة عندما اشتعلت العربة ، فالنيران هى أعدى أعدائى ، حيث تنتزع ماء جسدى كله فى لحظات ، مما اضطرنى إلى قتل (سمبسون) و (بيل) معًا ، لأحصل على القدر الكافِ من الماء .

والتفتت إليه فى حزن ، وهى تقول :

ـــ والليلة لم يبق سوانا .. أنت وأنا .. وهذا يعنى أن أحدنا فقط سيحيا ، أما الآخر فلابد أن يموت .

(*) حقيقة علمية .

وانهمرت الدموع من عينيها أكثر ، وهى ترنو إليه بكل حبها ، قائلة :

ــ ولقد اخترت أن تحيا أنت .

نهض من مكانه ، واتجه إليها فى حزم ، وهى تضيف :

ــ لقد أحببتك يا (خالد) .. عبر كل القرون التى عشتها لم أحبّ سواك ، ومن أجلك سأفعل ما لم أفعله من قبل أبدًا .. فى كل الأجيال .. سأهبك حياتى يا (خالد) :

أمسك (خالد) كتفيها فى حنان ، على الرغم من كل ما رآه وسمعه ، وقال فى حب أدهشنى :

ــ (حبيبتى) .. لو أن حياتك رهن بحياتى ، فأنا أمنحك أياها عن طيب خاطر .

دفعته عنها ، وتراجعت هاتفة :

ــ لا يا (خالد) .. لا .. اتركنى أرحل هذه المرة ، فحياتى كتلة من العذاب ، يهدّدها الموت فى كل ليلة ، والراحة الوحيدة التى أجدها هى عندما أعود إلى الرماد .

خيّل إلىّ أن النيران المتساقطة من عينيها قد صنعت حول قدميها دائرة من اللهب ، راحت تصعد إلى جسدها ، وهى تقول :

ــ وداعًا يا (خالد) .. وداعًا يا من أحببت ، عبر كل القرون .

هتف بها (خالد) :

ــ لا يا (لورا) .. انتظرى .. سنجد الحل حتمًا ..

ولكنها تحوّلت فجأة إلى لسان من اللهب ، أضاء المكان كله لحظات ، ثم خبا بغتة ، وترك مكانه كومة من الرماد ..

وكان رمادًا يختلف بالفعل ، فهو رمادها ..

رماد (العنقاء) .

٨ ــ الختام ..

نفث قائد بعثة الإنقاذ دخان سيجارته العاشرة ، وهو يتطلّع إلى (عثمان) فى صمت ، بعد أن انتهى هذا الأخير من روايته ، ثم سأله فى بطء :

ــ أأنت واثق من أن قصتك ليست وليدة الإصابة بضربة شمس يا فتى ؟

غمغم (عثمان) :

ــ هل تبدو لك كذلك ؟

هزّ الرجل كتفيه ، ومطّ شفتيه ، قائلًا :

ــ إنها متقنة على أية حال .

ثم سحب نفسًا جديدًا من سيجارته ، وسأله :

ــ ماذا فعل (خالد) بعد أن عادت (العنقاء) إلى الرماد ؟

أجابه (عثمان) فى حزن :

ــ لم أر لحظتها مخلوقًا أكثر حزنًا وأسى منه ، عندما هبطت إليه ، ولقد حمل رمادها فى حرص ، وعاد به إلى المقبرة ، فأودعه القنينة النحاسية ، ورفعها فوق العمود الحجرى ، ثم طلب منى معاونته فى إخفاء المقبرة تحت الرمال مرة أخرى ..

سأله الرجل فى اهتمام :

ــ وهل فعلت ؟

أومأ (عثمان) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ ما كنت لأرفض لسيّدى مطلبًا .

مطَّ الرجل شفتيه مرة أخرى ، وقال :

ــ يا للخسارة !

وهنا تابع (عثمان) فى أسف :

ــ لقد عملنا طيلة النهار ، حتى أخفيناها تحت الرمال ، ثم قمنا بحلّ الخيام ، وحملت أنا خيمة واحدة على ظهرى ، فى حين ألقينا الباقين بعيدًا ، خشية أن يتعرّف أحد موضع المقبرة منها ، وبعدها أخرج سيّدى تلك البردية ، التى عرف منها موضع المقبرة ، وأحرقها وهو يبكى ، ثم أخذنا نسير ، فى محاولة للعودة إلى (وادى الملوك) ، ولكن يبدو أننا ضللنا الطريق .

سأله الرجل فى اهتمام :

ــ وأين سيّدك ؟.. ماذا أصابه ؟

أجابه (عثمان) :

ــ لم يتناول طعامًا ، طوال اليومين اللذين قطعناهما سيرًا ، حتى سقط متهالكًا ، فنصبت الخيمة ، وأرقدته تحتها ، وتركت معه زمزميتين ممتلئتين ، وحملت أنا ثالثة ، وانطلقت باحثًا عن النجدة .

سأله الرجل فى اهتمام :

ــ ومتى فعلت هذا ؟

أجابه (عثمان) :

ــ قبل عثوركم علىّ بساعة واحدة .

أومأ الرجل برأسه ، وقال :

ــ هذا حسن .. لقد أرسلت الرجال لتفتيش المنطقة ، وسيعثرون على سيدك حتمًا .

ارتفع فى تلك اللحظة أزيز جهاز اللاسلكى ، فاستدار الرجل إليه ، واستمع إلى محدّثه لحظات ، عبر المسماع الصغير ، ثم التفت إلى (عثمان) ، قائلًا :

ــ لقد عثروا على سيدك ، وهو بخير ، وسيسعفونه على الفور .

تهللت أسارير (عثمان) ، وأغمض عينيه قائلًا :

ــ حمدًا لله .. حمدًا لله .

ثم عاد يرفع عينيه إلى الرجل ، قائلًا :

ــ معذرة يا سيّدى ، كنت أتمنى لو أنك احتفظت بكل ما سمعته منى سرا ، فلن يغفر لى سيّدى أن قصصت عليك القصة .

تطلّع إليه الرجل ، وهو ينفث دخان سيجارته ، ثم ابتسم ابتسامة باهتة ، وقال :

ــ اطمئن يا (عثمان) ، لن أخبر مخلوقًا واحدًا بهذه القصة ، حتى لا يتهموننى بالجنون ، ولتبقى (العنقاء) أسطورة .

ثم هزّ كتفيه ، وشرد ببصره مستطردًا :

ــ مجرّد أسطورة .

° ° °

[تمت بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

باقة من القصص والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

فى هذا الكتاب

الرقم الكودى : ٦٢٢١٩

الثمن فى مصر ١٥٠ قرشاً
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم